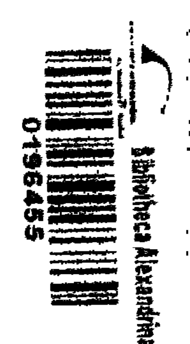
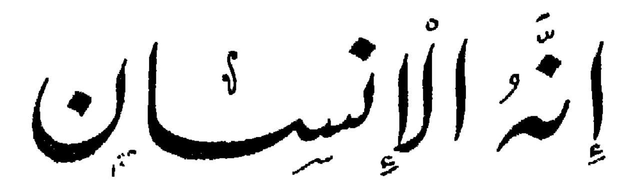
خالد محمد خالد

إنه الإنسان



ملتزم الطبع والنشر دار الكتب الحديثة
لصاحبها توفيق عفيفي عامر
شارع الجمهورية بالقاهرة

خالد محمد خالد



« أثمن من المعرفة »

« التصميم على أن نعرف »

ملتزم الطبع والنشر دار الكتب الحديثة
لصاحبها توفيق عفيفي عامر
شارع الجمهورية بالقاهرة

مطابع دار الكتاب العربى بالقاهره



الإهداء

إِلَى النَّـــــاسِ كَافَّـــــة . . .

فى هذا الكتاب

صفحة

الفصل الأول :	الأنسان عَبْر نفسه	٥
الفصل الثانى :	الأنسان مادة حضارته	٤٣
الفصل الثالث :	الأنسان سيد فكره	٨٣
الفصل الرابع :	التحديد ، والاختيار . .	١٣٩
وبعـــد :	. . . . . .	١٥٩

مقـــدّمة

فى صُحبة تفاؤل عظيم بمستقبل الإنسان ، كتبت هذا الـكتاب .. وفى صحبة هذا التفاؤل ، أعيش — دوما — وأحيا

وصاحبكم من الذين يربطهم بالإنسان ولاء غير مجْذُوذ ، ولا محدود ..

وكل ما فى الناس من ضعف ، لا يصرفنى عن رؤية الإنسان الـكامن داخل ذواتهم ، وصفوفهم .. والـكادح إلى الكمال كَدْحاً فملاقيه .. !

صحيح أننى — أحياناً — أبتئِس بما يفعلون ، وبما أفعل ، ويتراءى لى مشهد الفيلسوف الأغريقى « ديوجينز » حين صاح من فوق هضبة عالية : « أيها الناس » .. فلما سارعوا اليه هزّ رأسه أسِفاً ، وقال : « لم أنادكم .. إنما أنادى الناس » .. ! !

لـكنّ الإنسان لا يلبث أن يظهر ، متربعا على عرشه القويم فوق كل هذه الفوضى .. حاملا مشعله المضىء وسط كل هذا الظلام ؛ فتذهب من فورها تلك الحسرات الـكاذبة . وتتطاير غواشى الـكآبة واليأس أمام عظمته السامقة ..

* * *

وهذا الكتاب ليس قصيدة تحكى أمجاد الإنسان وتردد مفاخره .

إنما هو محاولة فى سبيل كشفه واجتلائه

ذلك أن الكثير من مشاكل البشرية ، مردّه تقطّع الأسباب بينها وبين الإنسان .. وقعودها عن العمل الدائب البار من أجل اكتشافه ، واكتشاف مشيئته

لطالما أقامت البشرية جُسورها فوق هاوية ..

ولطالما أسلمت أمورها للبغضاء ، وللحظوظ الغاشيات .

وكثيراً ما كانت ـ ولا تزال ـ تبدو كجيش زاحف تاه عن قائده ، وحيل بينه وبين معرفة خُطته المُثلى ، واتجاهه السّديد .. فتبدد ، وتشتت ، واحتواه الضّياع

ولكن لحسن الحظ ، أنها أدركت أخيراً ، أنها لكى تضع أقدامها الراسخة فوق صراط قويم .. ولكى تكتشف حقائق حياتها فى زمن وجيز ، وبجهد يسير .. ولكى تظفر بكل أغراض وجودها العظيم .. ؛ فلا بد لها أن تعود بتفكيرها جميعه إلى الإنسان . .

ولقد فعلت .. وكأىّ من رائد ، وفيلسوف ؛ وهمّام أبلى فى هذا السبيل أطيب البلاء . .

بَيْدَ أن الجهود التى يتطلبها هذا العمل الجليل ، لا تزال تتطلب

المزيد . ومن ثَمَّ ، فتبعات الذين يستطيعون الإسهام والمشاركة ، تناديهم وتهيب بهم كى ينهضوا ، ويتقدموا ..

***

وهذا الكتاب ، جهد متواضع ، يتقدم على استحياء ليأخذ مكانه بين الجهود الكبار ، العاملة من أجل اكتشاف الإنسان .. اكتشاف حقيقته .. واكتشاف مشيئته .. واكتشاف الفرص الواجب توفرها له كى يبلغ كماله الميسور ، ويدرك مجده القادم . .

وهو ، أعنى الكتاب ، يتتبع الإنسان — عَبْر نفسه — ، و — خلال حضارته — ، ويبصره فى — آفاق فكره — ، وفى — اختياره وحريته — ..

ولم أسأل نفسى قبل البدء فى المحاولة ، إن كانت الظروف مُهَيَّأة بحيث أزاولها على النحو الذى أريد ، أم لا .. إذْ كان حسبي أن أُلَبِّى نداء تبعات فكرية أمينة ، وأقول كلمات أحسبها لازمة ، ومُجْدية . .

***

لقد سُئل « كونفشيوس » من أحد تلامذته هذا السؤال :

— كيف أؤدى واجبى تجاه الأرواح .. ؟ ؟

فأجابه « كونفشيوس » :

— عند ما تتعلم كيف تؤديه تجاه الأحياء .. ! !

وهكذا نحن .. لن نستطيع أداء واجباتنا تجاه كل شيء ، حتى نؤدى ـ أولا ـ واجبنا تجاه الإنسان .

وعلينا أن ندرك هذا جيداً .. فعلى إدراكه يتوقف كل مانرجو نحن البشر ، من تقدم وارتقاء ..

ولعلكم الآن تتساءلون : وما هذا الإنسان . . ؟ ؟ وأين نلقاه .

وهنا أستودعكم الله ؛ مُخلّيا بينكم وبين الكتاب م؟

خالد

الإنسان عَبْرَ نفسه

لهذا خلقنا . .

ومنذ أعطينا هذه الأرض ، وهذا الوجود ، وهذه الحياة . . وثمة من الأعماق البعيدة نداء لا يفتأ يتردد ويهيب : أن واصلوا السير دوما . وارفعوا مراسيكم وأبحروا إلى الغرض العظيم . .

الغرض العظيم . . . ؟ ؟ وماذا يكون . . . ؟ ؟

لطالما تبدّى لنا فى نماذج شتّى . . فى الأرض تارة ، وأخرى فى السماء . . خارجاً عنا مرة ، وكامناً فينا مرة أخرى . .

وفى كل هذه الاعتمالات ، كان القلق العظيم الذى يدفع خطانا ، ويُثير فينا قوى الاستشراف إثارة عليمة واعية . .

سِرْنا مع القدَر ، ومع الحظ ، ومع الذكاء . .

زامَلْنا اليأس ، وزاملنا الرجاء . .

ذقنا مرارة الإخفاق ، وحلاوة الظفَر . .

عشنا على السفوح ، وتذرّيْنا القمم . .

واجهنا الفجائع ، وعانَقْنا المباهج ، وسرنا على الشوك حُفاة ، وعانَيْنا الصقيع عُراة . .

وفى كل هذا وذاك . كانت راية الإقدام تخفق عالية ، عالية . . معلنة وجود قافلة تحتدم شوقاً . وتتضرّم رغبة . وتتفجّر عَناء ، وذكاء ، وعزما . . ،

وكان أعظم ما فينا ، وأروع خصائصنا ، الشوق . .

يالهـا من كلمة ممتلئة باسلة — هذه التي نلقيها اليوم دون أن نلقى لها بالا . . ! !

أجل . . كان الشوق رائدنا ، وحافزنا . . ومن كل ظفر عظيم يُتاح لنا تحقيقه ، كان ينبعث شوق جديد لظفر قادم ، وتغمُرونا غبطة جديدة بمسئوليات تالية . .

ولـكن ، إلام كان هذا الشوق العظيم . . ؟ ؟

لم نـكن ندرى ، وإن كُنّا نُحِسّ . .

لم نـكن نعلم ، وإن كنا نَحْدِس . .

حتى انبثق ذات يوم من موكبنا الصاعد عمالقة تَتْرَى . . فيهم الأنبياء الذين يُقلِّبون وجوههم فى السماء فتلهمهم المدى والفرقان . .

وفيهم الفلاسفة الذين يتساءلون : كيف . . ؟ ، ولمـاذا . . ؟

وفيهم الفنانون الذين تُزجى أناملهم الرقيقة سر الطبيعة وذكاءها .

ومنهم العلماء الذين أخرجوا خِبْءَ المجهول ، وأسَرّ إليهم الـكون بقوانينه . .

وتغشّانا من العجب ما تغشّى . .

لم يكن عجَبُنا ، كيف وُجد هؤلاء . . ؟ وإنمـا كان :

كيف وُجدوا فينا . . كيف خرجوا من بين صفوفنا .

كيف خُلقوا من طينتنا . . ؟ ؟

إنهم معنا على ذات الأرض التى نمشى جميعاً فى مناكبها . . وإنهم ليحملون مثلنا نحمل ميراث جميع الأسلاف الذين سبقونا . فكيف تفوّقوا . . ؟ وكيف تألّقوا . . ؟ وكيف اتخذوا طريقهم إلى السماء صاعدين . . ؟ ؟

وكان هذا الحِسُّ ، نقطة انطلاق عارم . وبدأنا ندرك الغرض العظيم الذى خُلقنا لنَبْلُغه . وعرفنا الشىء الذى يسوقنا الشوق إلى لقائه . .

ولم يكن سوى الإنسان . . . ! !

ومنذ ذلك اليوم — فيما أحسب — بلغنا رُشدنا ، وبدأنا نعرف كل شىء ، حين بدأنا نعرف أنفسنا ودَوْرنا . .

لقد كان ميلاداً جديداً لنا — نحن البشر — حين أدركنا أن الأرض التى نعيش فوقها ، تعمل ، ويعمل كل شىء فيها تحت زعامة الإنسان . .

هذا الإنسان الذى هو خليفة الله . .

القابض بيديه الماهرتين على شئون عالمه . .

هذا المتفوق الجسور . . بطل المآزق دوما . . المتسلى بالأهوال أبدا . . الذى يبصر النظام الكامن فى الفوضى الماثلة . . والذى يقود مصايره إلى مشارفها العظيمة الواعدة . . ! ! !

هذا الكائن الساس المعقد ، البسيط المركب .. الضئيل الجبار ..
صانع الحركة الداهمة لكل عقبة . . جاعل المستحيل ممكنا . . ! !

ولكن هل عرفناه حقا .. أم أننا لا نزال بسبيل أن نعرف ..
وماذا يا ترى وجدناه .. ؟؟؟

* * *

إن الطبائع النهائية للأشياء لم تعرف بعد ..

والعلوم التجريبية نفسها لم تزعم لنفسها هذه المعرفة على الرغم من الأسرار الكثيرة التي أذاعتها ، والخواص التي كشفتها ، والقوانين التي وضعت كلتا يديها عليها ، وعلى الرغم مما تتمتع به من تنبؤ ذكي واقتحام عليم . . !

ذلك أن تلك الطبائع النهائية ، ترتبط بأزليات أممنت في البعد وفي الخفاء . . ووراء ملايين العصور ، بل وراء كل تصور للزمان والمكان ، تستقر وتكمن الطبائع الأولى للأشياء ، والتي هي أيضا الطبائع النهائية لها . .

ولقد اكتسبت الأشياء خلال تطورها المديد صفات تفوق كل حصر وعدد .. بلايين القشرات تغطي حقيقتها الكامنة ، ومادتها الأولى .. وتكتشف الأجيال المتساوقة من البشرية ، من هذه القشرات

عدداً مناسباً لذكائها ومقدرتها .. وتصيح فى زهو الانتصار : « ها .. قد بلغت القاع » .. والقاع منها بعيد جد بعيد . ! !

والطبيعة النهائية للانسان مثل ذلك .. قارة عظمى ، لا تزال مجهولة ، وما أوتينا من العلم بها إلا قليلا .

ولقد ذهب علماء الدين ، وعلماء النفس ، وعلماء الحياة ، يجوسون خلال تلك القارة الغامضة ، ولا يزالون يفعلون .

أما الدين ، فقد رأى فى الإنسان رأياً حصيفا ..

فهو إذ لم تتح له الوسائل التى أتيحت للعلم ، فقد بلغ بالإنسان شأواً عبقرياً بعيدا .. وفى شمول لا يأبه بالتفاصيل أعلن رأيه فى الإنسان . فهو خليفة الله فى الأرض .. وهو الجرم الصغير الذى انطوى فيه العالم الكبير .. هو مَجلى مشيئة الله ومظهر عظمته واقتداره .!!

والتصور الدينى حين يصل الإنسان بالله على هذا النمط الباهر ؛ إنما يحرز تقدماً علمياً وفلسفياً . فهو يعترف ضمناً بلا نهائية الإنسان . ؛ لأن الله سبحانه لا ينتهى ...

ويجىء العلم . علم الحياة ، وعلم النفس ، وعلم وظائف الأعضا ، فيضع الإنسان تحت مختبراته . وتفجأه أسرار وألغاز لا تؤذن بانتهاء .

يقول العالم الدكتور « الكسيس كاريل[1] » :

---

(١) كتاب « الإنسان ، ذلك المجهول » .

« إننا لا نفهم الإنسان ككل . . ! إننا نعرفه على أنه »
« مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها »
« وسائلنا . فكل واحد منا عبارة عن موكب من »
« الأشباح تسير فى وسطه حقيقة مجهولة . . »
« وواقع الأمر أن جهالنا مطبق . . »

« فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين »
« يدرسون الجنس البشرى ، تظل بلا جواب . . لأن
« هناك مناطق غير محدودة فى عالمنا الباطن ، ولا تزال »
« غير معروفة . . »

« فنحن مثلا لا نعرف حتى الآن كيف تتحد جزيئات »
« المواد الكيماوية كى تكون المركب والأعضاء »
« المؤقتة للخلية . . »

« كيف تحدد المورثات التى تحتوى عليها نواة البويضة »
« المخصبة ، مميزات الفرد الذى ينبثق من هذه البويضة . . »
« كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء نفسها . . »
« ما هى طبيعة تكويننا النفسى ، والفسيولوجى . . »
« إن العلاقة بين الشعور والمخ ، لا تزال لغزاً . . »

« ولا نزال بحاجـة إلى معلومات كاملة تقريباً عن »
« فسيولوجية الخلايا العصبية . »
« إننا ما زلنا بعيدين جداً عن معرفة ماهية العلاقات »
« الموجودة بين الهيكل العظمى والعضلات ، والأعضاء ، »
« ووجوه النشاط العقلى والروحى ... »
« وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها يمكن أن تلقى فى »
« موضوعات بالغة الأهمية بالنسبة لنا ، بيد أنها ستظل »
جميعاً بلا جواب .. »
« فمن الواضح أن جميع ما حققه العلم من تقدم فى دراسة »
« الإنسان ما يزال غير كاف وإن معرفتنا بأنفسنا لا تزال »
« بدائية إلى حد كبير ... »

إن هذه الـكلمات لا تعنى — طبعاً — أن العلم عاجز . لـكنها تعنى أن الإنسان حقيقة ضخمة ، وعالم كبير ، وأنه ليس من البساطة بحيث تـكفى لادراكه تلك الجهود التى بُذلت .. بل لابد من مواصلة مُضنية لمحاولات فهمه ، وكشف حقيقته .

ولابد — أيضاً — من ترويض أنفسنا على تقبل الملاحظة الموضوعية التى تجعل الإنسان غرضها وموضوعها . والتى تعطينا نتائجها أصدق صورة لحقيقة الإنسان .

إن الدين ، والعلم ، والفلسفة ، والفن ، والأدب . قد أبلوا جميعاً بلاء صادقاً في تمهيد الحياة للإنسان وتعبيد طرائقها .. أو قولوا إن الإنسان عن طريق هذه القُوى قد وطّأ أكناف الحياة لنفسه .. وعن طريق هذه القُوى قد جلّى ذاته وأظهرها ، ولا يزال يجليها ويظهرها .

وإن كلمة — إنسان — لتبلغ من العظمة مبلغاً يجعل كل إضافة لها لغواً ..

وتبلغ من الجلال مبلغاً يجعل نعته بالسوبرمان فُضولاً ..

« السوبرمان » .. وصف نخلعه على الإنسان لنرضى به غرورنا بحقيقة الإنسان ، ولنعبّر به عن أمنيات عزيزة ، وإن نائية ، لمستقبلنا نحن البشر .

ولكن لماذا « السوبرمان » .. ؟ ؟

لماذا ، الإنسان الأعلى .. ؟ ؟

أولا يكفي أن يكون الإنسان ، وحسب .. ؟ ؟

وهل وُجد الإنسان ، حتى نتعجل مجيء الأعلى .. ؟ ؟

في رأيي أن الإنسان لم يتم بعد ظهوره . وهو حين يتم ظهوره ، يجيء متضمناً كل كماله .. ويصير وصفه بالأعلى ، شبيهاً لو وصفنا الشمس بالمضيئة .. !

ثم إن هذه الكلمة « السوبرمان » تكاد تخدعنا عن حقيقة الإنسان التي يجب أن نتقبلها ونحترمها بكل مافيها من أشواك وأزاهير .. وتكاد تسيء إلى الجهود البارة العظيمة التي بذلت ، وتبذل من أجل ظهور الإنسان .

إن الناس الذين عاشوا في العصر الحجري ، والناس الذين سيحيون بعد عصر الكواكب والفضاء ، سواء في التمجيد والتكريم .

والإنسان في بداية تطورنا — على الرغم من جهله وعجزه وفوضاه . لا يقل شأوا عن الإنسان القادم في نهاية التطور مع سموق مكانته ومشواه ..

بل الإنسان القادم متضمن للإنسان الذاهب وهو ابنه ، وحفيده ونتاجه .

من أجل هذا نولي وجوهنا في هذا الكتاب شطر الإنسان .. الإنسان الذي ليس أدنى ، وليس أعلى .. والذي لم يترك إلى جواره فراغاً ولا مكاناً لأي وصف مهما يكن شاهقا وعظيما .

الإنسان الذي لايستطيع أحد أن يحتكر الحديث عنه — لارجل الدين ، ولا رجل العلم ، ولا رجل الفلسفة .. لأنه أكبر من هؤلاء جميعاً ، وأرحب آمادا ، وأفسح أبعادا من العلم ، ومن الفلسفة ..

الإنسان الذى بدأ ظهوره ولم يتمّ بعد . . والذى يتجلى شيئاً فشيئاً ، سائراً عَبْر نفسه ، طاويا أعماق كيانه الأزلى أو الشبيه بالأزلى على كل إمكانياتِ تفوقه واكتماله .

هذا الذى يُحوِّل بُؤسه إلى عظمة ، ورذائله إلى فضائل ، وعجزه إلى قوة ، وانحطاطه إلى رفعة .

هذا الذى يُفرغ أمسه فى يومه . . ويُهدى يومه إلى مستقبله . .

هذا الذى عندما تجلّى فى سقراط وأفلاطون ، وعمر بن الخطاب وماركوس أو ريليوس ، وبوذا وغاندى ، وهيجل وابن سينا ، وشكسبير والمعرّى ، واينشتاين وابن الهيثم ، وديكارت وابن رشد والفارابى . . . لم يكن يعنى أنه حقق بهذا التجلّى كماله . . وإنما كان يعنى أنه يختبر المعازف التى ستعزف ذات يوم ، وإلى الأبد ، السمفونية الكبرى واللّحن العبقرى العظيم . ! !

أجل . . كانت هذه العبقريات كلها — عيّنات — يكتشف بها طبيعته واستعداده ، ويدرس عليها فطرته ، ويستبين بها وجهته ، ويختبر صلاحيته .

وإنه لماضٍ إلى يومه الموعود . . اليوم الذى يرفع فيه جميع أفراد نوعه إلى مستواه . . اليوم الذى يصير فيه كل فرد ، إنساناً . . وتصبح

فيه كل الخصائص العظيمة التى تجلت فى عباقرة البشر ، بمجرد طبيعة عادية لكافة أفراد البشر . ! !

هذا هو دور الإنسان . .

هذه هى رسالته التى من أجلها يعمل ... هذه هى التبعة التى استحق بها الزعامة على الأرض بما فيها .

هذه هى المخاطرة الكبرى الظافرة التى كتبها الله له ... والتقى عندها بأسرار الكون مُسخَّراتٍ بأمره ، مُشْرعاتٍ إلى مشيئته .

* * *

صحيح أنه كان ذلك الحيوان الذى يغطيه الشعر فى الغابة ... والذى يجوب الأرض سالباً ناهباً ، يبحث عن صيد يسكت به سُعَار جوعه ...

صحيح أنه تعلم ذات يوم تنظيم حياته من مخلوقات أدنى منه وأضأل ... وأن بعض أساتذته فى ذلك الزمان ، كان الكلب ، والغراب ، والنمل ، والنحل ، والعنكبوت ... ! !

صحيح أنه عاش أدهاراً طويلة ، بدائيا فظّاً ، لا تزيد مظاهر حضارته عن الهراوات ، وحبال الصيد ، والرماح والمقاليع ... ! !

بل صحيح أن أشهى وجبات طعامه كانت — ذات يوم — تلك التى تتكون من اللحم البشرى الذى أتقن شِوَاؤه ... ! ! !

وصحيح أنه استعبد الرقيق ، فلما ترقّ ... استبدل بالرقيق الأجرا الـكادحين ... !

وصحيح أنه شحذ للقتال مخالبه وأظفاره ... فلما ترقّى استبدل بها الحديد والبارود ... !

وصحيح أنه مارس السَّبْي واغتصاب النساء ، فلما ترقى استبدل بهما المخادنة والاحتظاء . !

صحيح أنه عاش طويلا فى أحضان الوحشية والفوضى ..

صحيح كل هذا ..

وحق أكثر من هذا ..

ولـكن ماذلك جميعه ، وأضعافه معه ، بقادر على أن يخفى عنا فضائله .. فضائل هذا الإنسان العظيم .. صانع المعجزات :. مبتكر الثقافة .. مُبدع الفن .. مُسيِّر التاريخ ..

هذا الذى انبثق منه موسى ، وعيسى ، ومحمد ، وبوذا .

هذا الذى صنع الحضارات الفذة عَبْر آلاف الأعوام .

هذا الذى ظهر فى مصر القديمة ، وفى أثينا ، وفى روما ، وفى بغداد ، وقرطبة ، وأوربا .. ألا إن الإنسان لم يَـكْشِف بعد ، إلا عن القليل من عظمته ، وإلا عن الأقل من مواهبه وقدراته .

وإنه لكادح إلى أغراض وجوده كدحاً ، فملاقيها ..

فلنمض معه ، لننظر كيف يمضى عبر نفسه وصوب مصيره .

* * *

لعل أمجد لحظات فى حياة الإنسان ، تلك التى اكتشف فيها وجوده ، واكتشف مع وجوده حريته ، واكتشف مع حريته مسئوليته .

ولقد كان هذا الكشف من أعظم آيات حدسه ، وأذكى أمارات ذكائه

فمن غير وعى وتفكير ارتبط الثلاثة فى روعه — الوجود ، والحرية ، والمسئولية . وهو بعد لا يزال يحبو فى دنياه .

عندما ألفى نفسه وحيدا فى أرض موحشة غامضة . .

عندما جاع ، وصاحت به أمعاؤه الممتحلة . .

عندما شردت أمنه ، وزلزلت سكينته الوحوش الكاسرة . .

عندما افتحته سبرات البرد ، وبعثرته عاصفة تلو عاصفة

عندما تلفت يمنة ويسرة .. قدامه ومن ورائه ، فما وجد أحدا سواه

لم يستطع أن يتصور نفسه وحيداً مفرداً فى كل هذا الفضاء والخواء ..

فذهب يقلب فى السماء وجهه ..

وكان عليه أن يلبث زماناً طويلا قبلمـــا يُحِسّ أو يعرف أن له مؤنساً ومُعيناً ..

ولـكن عوامل إفنائه ، وتقويضه لم تـكن لتنتظر ، ومن ثَمّ وجد نفسه مَسُوقا للعمل وحده .. ولا بد أنه تَهيَّب المخاطرة بادىء الأمر ، لـكن الأهوال الزاحفة ألقت عليه مسئولية دفعها ، ونادت كل قدراته للمقاومة . . وهكذا تحركت يداه ، ورجلاه ، واحتشدت خلايا مخه ، وأخذت مكانها على أرض المعركة .. ولوّح للمخاطر بقبضته العارمة ، فولّت أمامه مذعورة .. كان يومئذ حراً ، لأنه لم يكن ثَمّة دولة ، ولا قانون ، ولا ملـكية ..

وكانت التجربة هى دينه ، وقانونه .. يمارس الشىء بدافع من فطرته ، فاذا استبان له نفعه أقبل عليه وأضافه إلى قائمة الأشياء التى ينتفع بها ويعتمد عليها

وكانت مسئوليته عن نفسه ، وعن سلامته وبقائه ، هى التى تحدد له مفهوم حريته . وهكذا ارتبطت الحرية بالمسئولية فى وجدانه من قديم بل وُجدت حريته كضرورة تقتضيها مسئوليته . أى أنه لـكى يكون مسئولا ، يجب أن يكون حراً ، وإلا تقوض بناء مسئوليته ، وانهار بالتالى وُجوده ..

وكان هذا الرباط الفطرى بين حرية الإنسان ومسئوليته .. نقول :

كان ، ولايزال أصدق البراهين على أنه وُجد ليبقى . ويصمد ..ويسود ..
ولـكن كيف وَجَد الإنسان مسئوليته ، ومن أى الأنباع تلقَّاها.. ؟؟

إنها نبعت من ذاته المتفاعلة مع ما حولها .. أو بتعبير آخر ، نبعت من علاقاته بالأشياء المحيطة به ، والتى تملأ عالمه . .

علاقته بالمجهول الذى يملأ فؤاده رَغباً ورَهباً ـ حمَّلته مسئولية البحث عن كُـنهه ، واستطلاع غيْبه ..

علاقته بنفسه ـ حملته مسئولية توفير حاجاتها الأساسية من مطعم وملبس وصيانة .. كما حملته مسئولية العمل المشترك بين أفراد النوع كله ..

علاقته بالأخطار التى تهب عليه فى صورة أعاصير ، وتجرى حوله فى صورة وحوش مفترسة ـ حمَّلته مسئولية مقاومتها وتحاميها ..

علاقته بوطنه الأرض ـ حمَّلته مسئولية إعدادها لتكون مقرا صالحاً لطول الثَّواء ..

ولقد مارس مسئولياته فى كدْح عظيم حتى إذا اطمأنّ إلى قدْرٍ كاف من السيطرة على بيئته ، ودَعَم الزمنُ الطويل علاقته بهذه البيئة ، شرع يفلسف هذه العلاقات ويحللها .. ومن ذلك الحين بدأت متاعبه الجليلة ، وهمومه النبيلة .

وإنها لإحدى المفارقات التى تملأ حياتنا . ففى الوقت الذى نبدأ فيه نعرف ، نبدأ كـذلك نتعب .. ذلك أن المعرفة ـ أى معرفة ـ تبـدو

دائماً وكأنها ولادة بين مخاضين . .

فمسئولياتنا تُلِحّ علينا كى نعرف . .

ومعرفتنا تُولِّد مسئوليات جديدة . .

والمسئوليات الجديدة ، تنجب بدورها معرفة أخرى . . وهكذا

ولقد كانت تلك العلاقات تنتشر وتتمدد ، كلما قلَّب الانسان فيها بصيرته

وكل فهم جديد لها ، كان يمنحه سلطاناً عليها ، وفى نفس الوقت يمنحها سلطاناً عليه

وهكذا بدأ الإنسان يواجه مأزق حياته كلها . ومن عجب أنه بدأ كذلك فى نفس اللحظة ولنفس السبب يُمسك بجميع الزمام !

كيف صنعت المعرفة مأزق الإنسان ؟؟

قلنا : إن موضوع المعرفة تمثَّل أول ما تمثل فى علاقاته بالأشياء . .
وهذه العلاقات تنطوى على قدْر كبير مُحيِّر من الغموض والتناقض .

فهو — مثلا — لكى يسيطر على الظلام ، يصطنع شعلة النار ، تضىء له ظلماته المخيفة . . ولكن هذه الشعلة الضئيلة النافعة ، تتحول أحياناً إلى حريق يلتهم كوخه ، ويدمر معيشته . .

وهذا البحر الذى سمح له أن يطفو فوق سطحه فى زورق ، ذى مجداف وشراع ؛ والذى يطعمه من أسماكه لحما طريا ، يرسل إليه مداً دائماً يبتلعه ويطويه تحت أمواجه ، ووسط غياهبه . .

وهذا المطر — أيضاً — يهطل غيثا يرطب صحراءه اللاهبة ، ويسقى أرضه الجدبة .. بيد أنه مرة أخرى يسيل طوفاناً يقضى على كل ما عملته يداه ، وهو فى حاجة إلى كل ما حوله على الأرض من مخلوقات وكائنات يدعم بها وحدة البقاء .. ولكن شيئاً آخر يدعوه إلى التنافس والمناجزة ، اسمه تنازع البقاء .. !

وهو لكى يحصل على حاجته من شىء ما .. ، عليه أن يعطى ما يساوى قيمته من شىء آخر .. !

وهو إذ يبادر السيد إلى الزراعة ويفرح بما سيلقاه من استقرار وسلام وإخاء ، إذا بالوضع الجديد يثمر نقيض ما كان منتظراً منه .. الرّق والاستعباد .. !!

ثم هو يأخذ بنظام التوريث ليترك لذريته الضعاف ما يصون حياتهم .. فإذا هو يفضى إلى خلق امتيازات ، وطبقات فاصلة ، لاهية .

كل الأشياء حوله ذات وجهين .. وكأن الحياة كلها تعمل داخل الإنسان وتعتمد على التنافر والتنافس . مثل حركة قلب الإنسان نفسه .. انقباض ، وانبساط .. ثم انقباض ، وانبساط .. وبهذين الضدين تأخذ دورة الدم مجراها ، وتبقى للكائن الحى حياته .. او مثل العلامة الرياضية (+) فهى خطان متعارضان ينتجان حاصل الجمع كله .. ولكنا

حركة الحياة كذلك .. ضربة رأسية بالطول . ، وضربة أفقية بالعرض .. تناقض دائب وَلُود ...

وفى هذا التناقض واجه الإنسان مأزقه . وفيه أيضاً عثر على الكثير من وعيه ومن هنا دخلت مسئولياته مرحلة جديدة ، وصارت تتمثل أكثر ما تتمثل فى :

● اكتشاف علاقاته الصحيحة بجميع الأشياء . .

○ إدراك الفلسفة الكامنة ، فى التناقض الماثل ..

● السيطرة على عملية التناقض فى كل مظانّها ، وتوجيهها دوماً صوب المصير الإنسانى . .

إن احتياجات الإنسان لاتنتهى .. والتعبير عنها كذلك لاينتهى .. احتياجاته كثيرة ومعقدة .. والتعبير عنها كذلك كثير ومعقد . ولطالما أحدث ذلك ، النزاع والخلاف بل والحروب .

فماذا هو فاعل اليوم ، وقد بلغ رشده ، ووجد وعيه . . ؟؟؟

* * *

لقد توافر الإنسان على دراسة نفسه وعالمه منذ وعاهما . وانتهت خطوط تفكيره المتوازية حينا ، والمتداخلة أحياناً إلى مرحلة فكرية معاصرة تبدو لنا متعددة السمات ، مختلفة الاتجاه .

فمنذ تكلم « هيجل » معلناً فكرته عن التطور التاريخى أو النتيجة المركبة ، اتضح طريق صَعبَ على الفكر الإنسانى أن يتجاهله ..

وجاء التفكير الماركسى ليعيد تخطيط الفلسفة الهيجلية . وليلوى زمام الحركة التاريخية شطر التغيير الثورى .. نافضاً كلتا يديه من المثاليات كلها معلناً أن علاقات الإنتاج دون سواها هى التى تقرر مصير الجماعة الإنسانية ، وتقود زحفها . مؤيداً صراع الطبقات باعتباره الحافز إلى الشيوع المنظم ، وبالتالى إلى الثقافة النابعة من التفكير العلمى والمادى ، والتى تصنع بدورها أو تكتشف أخلاق المجتمع الجديد .

× ×

ولكن تفكيراً آخر معاصراً ، يعلن أن أزمة الإنسان الكبرى ماثلة فى تمزّق صفوفه ، هذا التمزق الذى يفضى إلى الحروب والدمار ، وينشر الأنانية البغيضة .. ومن ثَمّ فلا بد من وحدة عالمية تحمل لواء حضارة عالمية واحدة تقوم على السلام ، والرخاء ، والمساواة .. والمساواة فى هذه الوحدة لا تتحقق تلقائياً ، ولا تثمرها الموعظة الحسنة ، ولا التغيير الثورى .. وإنما تجىء بفرض رقابة اقتصادية ، عالمية ، فدرالية . .

كما أن السلام ، والرخاء لا يجيئان عَفْو الصدفة ، وإنما عن طريق التربية التى تلقن الإنسان أنه ليس مواطناً عالمياً وحسب .. بل هو أيضاً

مواطن تاريخى ، بينه وبين كل عصور التاريخ أواصر قربى ونسب ..
ويتم ذلك كله فى نظام يعتمد على الديمقراطية ، والحرية .

× ×

وينهض تفكير ثالث ، مردداً من جديد صيحة سقراط « اعرف نفسك » ..

ومشكلة الإنسان الأساسية فى هذا التفكير ليست اقتصادية ، ولا سياسية ، ولا اجتماعية . بل هى روحية خالصة .

فالقحط الدينى والروحى الذى يعانيه الضمير الإنسانى هو الذى يهدد حياته ..

لقد صعد العلم بالإنسان إلى القمة ، ولكن أ ا فه أعادته إلى السفح . . !!

إنه ــ مثلا ــ اكتشف الطاقة الذرية ، وبدلا من أن يحول بها أرضه المكدودة إلى فردوس بهيج . . ذهب وألقاها على . « هيروشيما » و « ناجازا كى » فدمرها وأهلهما تدميرا . . فتغيير القلب الإنسانى ، لا تغيير النظم ، ولا تغير المجتمعات ، هو مناص الخلاص . . والأخذ بروح الدين ، ونبذ شهوات الأنفس هما سبيل النجاة . .

نعم . أن يضع الإنسان يده فى يد الله .. وألا يجعل غرض حياته التعبير عن ذاته . بل إنكار ذاته .. وأن ينذر نفسه لحقيقة روحية سامية ..

هذا — وحسب — هو مايفتقده الإنسان اليوم لكى ينهض ويبلغ كتابه أجله .

× ×

وفى مكان آخر ينهض تفكير آخر لا يقول : « اعرف نفسك » وإنما يصيح : « أوجد ذاتك » ..!

لكى نعرف أنفسنا ، علينا أن نتأكد من وجودها

إننا أعطينا العقل لنفكر به ، فألغيناه .. وأعطينا الغرائز لنشبعها فقمعناها .. وأعطينا الحواس لنطل منها على العالم الموضوعى فعطلناها ..

إن الإنسان فرد . قبل أن يكون مجتمعاً . ومن حقه الكامل أن يختار قيمه وطريقة حياته .. ومن وجوده المحض .. وجوده الذاتى يستمد معاييره الخاصة .

ويرى هذا التفكير ، أن مشكلة الإنسان تتمثل فى أن حياته اليوم أشبه ما تكون بزقاق مسدود ، تغشاها « طمأنينة زائفة » وتحركها

« رَتَابة مُمِلَّة » وأنه — أى الفرد الإنسانى — يعيش ممثلا فى دور مفروض عليه ، ويقضى عمره تائها وسط مخلوقات تائهة

أى أنه لا يعيش حياته ، وإنما يمثلها ..

والخلاص إذن أن يدرك الإنسان أنه خالق نفسه ، وأن يحيا فى نطاق « قدَره الشخصى » الذى يصنعه هو لا « قدره الاجتماعى » الذى يريده له المجتمع ،، وأن يخرج حياته من رتابتها المملة ودورها المصطنع ..

. إن ماهية الإنسان أمر ثانوى بالنسبة لوجوده . أو هى أمر تال للوجود ..

والمفهوم الصحيح للوجود ، هو الاختيار .. وهو القدرة على تخطى الوضع الماثل ومجاوزته .

× ×

ويعلن تفكير آخر أن مشاكل الإنسان جميعاً ، قد تسلمتها اليد البارعة ، يد العلم ..

والعلم وحده هو الذى سيقود الإنسان إلى غايته ، ويجمعه بمستقبله العظيم . وإن علوم الطبيعة ، والكيمياء ، والنفس ، والأحياء قد برهنت بعد الشوط الظافر الذى قطعته على جدارتها بحمل العبء كله .. والعلم

سيجعل المشاكل الاقتصادية كلها مباهج ومناعم حين يوفر من الرخاء مالا يخطر ببال .

إن العلم الذى أحال الصحراء إلى مزارع .. والذى أنجب من الأنعام المهزيلة سلالات فذة تعطى الواحدة منها من اللبن فى حلبة واحدة ، مثلما كانت تعطيه سبعون أو ثمانون .. والذى أخرج من الفول السودانى وحده قُرابة مائتى نوع مابين غذاء ، وكساء ، ودواء .. والذى بسط يده إلى القطب المتجمد ، داعياً إياه إلى الاستسلام كى يستثمره ويزرعه .. والذى أنزل كثيراً من الأمراض العصيَّة عن عروشها الباغية ، وخفف نسبة الوفيات ..

العلم الذى عكف على العقل الإنسانى ، وعلى النفس البشرية وبدأ يكشف أسرارها . ويسبر غورها .. والذى صعد بالآلة وبالصناعة إلى ذروة العمل والإنتاج .

العلم الذى طار إلى القمر ، ثم جاوز القمر إلى الشمس .. هذا العلم ، هو الذى يحمل البلسم الشافى لكل متاعب الإنسان ومصاعبه ، وهو الذى سيقوم بتطوير الإنسان تطويراً كاملا فى كل مجالاته الخلقية ، والفكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

ومشكلة الإنسان إذا كانت له اليوم مشكلة ، هى ضعف ثقته بالعلم ، وضعف قدرته على مسايرة العلم .. ولكن حتى هذا الأمر ، سيتولى العلم علاجه ، وليرفعن الإنسان إلى مستواه فى يوم قريب ..

هذه تقريبا — هى الفلسفات المعاصرة التى تعمل فى خدمة الإنسان ، وهذا هو منطقها .

فأين الإنسان من كل هذه الفلسفات ... ؟ ؟

إنه خالقها جميعاً ، ومُبدعها . ولقد كانت كلها مستقرة فى رُوعه وفى فطرته منذ أيامه الأولى على هذه الأرض وفى أشد عصوره الماضيات جهالة وحُلْكة .

وإنا لنستنبط من هذه الظاهرة رأيا نحسبه صحيحاً .. هو أن شرما يصيب البشرية من تمزُّق وخلاف ، إنما يحدث يوم تعزل الإنسان عنها وتنساه .

فمعظم نزاعنا الدينى ، والعلمى ، والمذهبى ، كثيراما يسببه أننا نتعامل كما لو كنا عوالم شَتَّى متنافرة .. ولسنا صفاً واحداً ، تتوسطه حقيقة معلومة هى الإنسان ..

إن الفلسفات ومناهج التفكير التى عرضناها آنفا تمثل كل ألوان الصراع الفكرى القائم فى مجتمعنا الإنسانى اليوم .. فلننظر الآن كيف أن « الإنسان » يتضمنها جميعا ، ويتطلبها جميعاً كحاجات أساسية له ولحياته منذ وعَى نفسه ، وليس اليوم فحسب ..

فالنزعة الروحيه مثلا ، تعتمل فى الوجدان الإنسانى من قديم عهده . كما تعتمل فى وجدانه من قديم ، قيمةُ التركيز على وجوده ،

وقيمة الإنتاج وفاعلية علاقاته ، وقيمة العلم والتجربة .

كيف حدث هذا . . ؟ ؟

فلنفحصها جميعاً . واحدة واحدة . .

× ×

لقد أحسَّ الإنسان قديما ، وقديما جداً ، حاجته إلى الدين ، فذهب يتكشفه .

وقد تبدو كلمة — يتكشف — هنا ، انحرافاً وتجديفا .

قد تكون عَسِرة الهضم لَدَى أولئك الذين يرون أن الدين هو الذى اكتشف الإنسان . ولكن الحقيقة هى مانقول : إن الإنسان اكتشف الدين . . ولكأنما اختارت الحكمة الإلهية له هذا الطريق ، ولسوف نوضح هذه النقطة فى فصل قادم . والآن نضْرب لما نقول مثلا . تقدمه لنا وثيقة لا تكذب هى نبأ إبراهيم فى القرآن الكريم .

وإبراهيم — كما نعلم — هو الأب الروحى للديانات الثلاث — اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام .

لقد رأى إبراهيم القمر بازغا يتلألأ ، وكان آنئذ يبحث عن رب يعبده . ويشبع بعبادته حاجة ملحة فى نفسه ، ويملأ فراغا أضنى وُجدانه قلقا وخوفا . . فأشار للقمر الذى بهره نوره ، وقال : « هذا ربى » ..

ولكن القمر أفل .. وأدركته الليالى التى يختنق فيها ضوؤه ، ويتحول إلى مُحاق .. فهزّ إبراهيم كتفيه اسفا .. وقال : « لا أحب الآفلين » ..

واتجه صوبَ الشمس ؛ فلما رآها بازغة ، قال : « هذا ربى . هذا أكبر » ...

فلما أفات ، قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ..

ومضى إبراهيم يبحث عن دينه ، بل يبحث عن ربه وإلهه .

وإنه ليتصور الإلَه كمالا مطلقاً .. ولقد ابتغى الكمال فى أقرب مظانّه ، وهو القمر المضىء .. ثم فى الشمس المشرقة باعثة الدفء والحياة . حتى إذا اكتشف حاجتهما إلى الكمال . ضنّ عليهما بالربوبية ..

ولم يكُفّ إبراهيم عن بحثه واستشرافه ، لأن حاجة فى أعماق نفسه البعيدة تحفزه وتدفعه — وإبراهيم فى بيئته وفى عصره ، كان يمثل أعلى مناسيب الذكاء الإنسانى .

انظروا طريقته فى البحث عن ربه ..

إنه مع كونه مُخْبِتاً عابداً ، يبحث بحث فيلسوف حر ..

يفتش فى الأنهار ، والبحار ، والزروع ، وبين الخصب والنماء ، حتى إذا لم يجد فى الأرض ما يمثل صورة الكمال الإلهى عنده ، يتجه إلى السماء ويركز بصره على أكبر أجرامها .. حتى إذا لم يحققا له مثله

الأعلى ، ينفض عقله وقلبه من المجسمات جميعاً . . ويشير إلى السرّ الأكبر الكامن فى الحياة وفى الكون ، ويهتف وقد وجد يقينه :

« إنى وجّهْتُ وجهى للذى فطر السموات والأرض ، حنيفاً مُسلماً ، وما أنا من المشركين » . .

مَنْ هذا الذى فطر السموات والأرض . . ؟ ؟

ما صورته . . ؟ ما مشهده . . ؟ ما مكانه . . ؟

ذاك شيء لا يشغله الآن . . إنما يعنيه وجود الرب القدير الكامل الذى يملأ فراغ نفسه الظُّلَمة ، والذى يفسّر وجودُه ، ما فى هذا الكون العجيب من آيات بينات . .

ولقد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام ، كما جاءت من قبله مواكب الأنبياء والمرسلين .. وقامت الأديان والشرائع ، وسار على الأرض آلاف من القديسين والحُنَفَاء ، فما زادوا فى الجوهر شيئاً عن رؤية إبراهيم

هذه الرؤية التى زاملت الأنسان من فجر تاريخه شعوراً مُلِحًّا ، وهُتافاً دائباً يُدوِّى فى أعماقه والتى أجاد إبراهيم إدراكها والتعبيرعنها .

× ×

وكما أحسّ الانسان حاجاته الروحية والتمسها فى الدين ، أحسّ كذلك حاجته إلى التركيز على وجوده

لقد ولد الانسان فى مهد وجوديته .. وحين بدأ يعى نفسه كان يحقق وجوده المحض بطريقة تلقائية فطرية

لم يكن ثمة أوامر ، ولا نواه ، ولا قيود ..

ولم يكن يمثِّل حياته بل كان يعيشها كاملة غير منقوصة

وكان قدره الشخصى صاحب الكلمة الأولى ، والعليا فى توجيه حياته . فليس هناك حكومة تخضعه ، ولا مجتمع يصهره

ولقد مكث طويلا ، يدور فى فلك وجوده المحض .. وحتى بعد أن خشى العزلة على نفسه وعلى كيانه ، ونادته ضرورات بقائه لينــدمج ... ن فرديته أمينة على حقوق ذاته ، ساهرة على دعم وجوده .

كذلــكم أحسّ الانسان فى طفولته المبكرة حاجته إلى تنظيم إنتاجه . . وأحسّ ـ ولا أقول وعى ـ أهمية علاقات الإنتاج بالنسبة لمصيره . وإن الطريقة التى كان يفرق بها الإنسان الأول بين المِلــكية الشخصية ، والمِلــكية العامة لتكاد تبهر الألباب بما تكشف من إحساس ذكى بأهمية علاقات الانتاج

فالإنسان فى ذلك الدهر الأوّل كان يقدس المِلــكية الخاصــة ولا يسمح قط بالافتيات عليها . . وبلغ من ارتباطه بها أن كان يأخذها معه إلى قبره بعد موته ، حتى الزوجة باعتبارها ملــكا له . كانت تفقد

حياتها حين يموت زوجها وتأخذ مكانها إلى جواره فى القبر بين ممتلكاته الخاصة . . ! !

هذا الولاء الضارى للامتلاك لا نجد له أثراً حين نغادر الأشياء الخاصة إلى المنافع العامة كالأرض مثلا . .

فالأرض عند ذلك الإنسان كانت كالماء والهواء لا تُباع ولا تُملك . . وهى مِلك لكل الذين يعيشون عليها ويعملون فيها . . ! !

وليست الأرض وحدها ، بل والقُوت الذى يخرج منها .

وكم يأخذنا العجب ، حين نعلم أن الإنسان الأول وضع لنفسه ولجماعته تقليداً : ألاّ يقرب طعامه إلا بعد أن يقف خارج كهفه ، ويصرخ مدويا بطريقة خاصة يدرك كل من يسمعها أنها دعوة إلى طعام .

واعتز الإنسان البدائى بهذه المشاركة فى الأرض التى كانت الوسيلة الوحيدة لإنتاجه عندما وجد أنها تتيح لأفراد الجماعة علاقات ودودة لا أنانية فيها ولا نزاع .

ومن البقايا المتخلفة عن ذلك الإنسان القديم ، التقى « الفرد رسل ولاس » ببعض منها فى أمريكا الجنوبية فقال[1] :

« لم أجد بينهم قانوناً ، ولا محاكم سوى الرأى العام الذى »
« يعبر عنه أهل القرية تعبيراً حراً . . »

---

(١) كتاب « قصة الحضارة » تأليف ديورانت

« فكل إنسان يحترم حقوق زملائه احتراماً دقيقاً . »
« والاعتداء على هذه الحقوق يندر وقوعه أو يستحيل »
« إن الناس جميعاً فى مثل هذه الجماعة متساوون تقريباً » .

كذلك التقى « هرمان ملفيل » بقوم آخرين فى جزيرة « ماركساس » فقال عنهم :

« أثناء وجودى بين قبيلة التابى لم يقدم أحد قط »
« للمحاكمة بتهمة الاعتداء على غيره من الناس ، وسار »
« كل شىء فى الوادى سيراً هادئاً متسقاً على صورة »
« لا تجد لها مثيلا فى الجماعات المسيحية مهما انتقيت منها »
« خيرها ، وأصفاها ، وأتقاها »

« وإن فى هذا القول منى لجرأة أستبيحها ، لأنه قول »
« صدق .. »

× ×

كذلك أحس الإنسان قديماً جداً ، قيمة العلم ومارسه قبل أن يعرف اسمه نعم مارس الإنسان العلم التجريبى على النطاق الميسور . .

لم يكن يملك المعامل ، ولا الأجهزة ، ولا المختبرات ، بل ولا الوعى

الذى يلاحظ به الظواهر ، ويستنبط به القوانين ، ومع هذا أحس حاجته للمحاولة العلمية ، وعبر عنها فى حدود طاقته ، ومضى يكتشف ويستخدم ، فاكتشف النار ، واستخدم الحديد ، وما وقفت به القناعة عند شىء واحد ، بل كان دائماً يجاوز الأشياء إلى خير منها فهو — مثلا — بدأ يولد النار من الشرر المتقاذف حين يطرق حجرا بحجر وكان من الممكن أن يكتفى بهذه الوسيلة مادامت تظفره بحاجته من اللهب غير أن هذه الوقفة ضد طبيعته ، وما دام قادرا على تصور وسيلة أفضل فلن تهدأ نفسه حتى يبلغها ويخرجها إلى الوجود وهكذا يترك الحجر إلى أدوات تقدح لها النار ، مضى يشكلها ، ويطورها فى دأب يشير إلى إصراره الفطرى على اكتشاف الأشياء والسيطرة عليها . . واليوم ، نبصر لكل مظاهر التقدم العلمى جذوراً فى المحاولات البعيدة الغريرة . .

فالصواريخ الموجهة : ليست إلا امتداداً لنفس المحاولة التى بدأها الإنسان القديم بقذف الحجر ، والرمى بالمقلاع . .

وأحدث وسائل إطفاء الحريق اليوم ، امتداد لمحاولته الأولى ، إطفاء النار بالطين . .

ووراء كل ظاهرة حضارية ، وكشف علمى ، ملايين المحاولات ، والحلقات التى يعتبر كل منها أثرا لما قبلها ، وسببا لما بعدها .

وإذا كان الإنسان الأول لم يدرك المفهوم الذى يدركه أسلافه

اليوم لكل من العلم والحضارة ؛ فإنه قد أحسّ فى عمق حاجته إليهما ، ومارس كلا منهما ممارسة فطرية .

مارس العلم ، كشىء يسيطر به على الطبيعة ، ومارس الحضارة ، كمجموعة من الاستجابات تُطوِّر حاله إلى أرق وإلى أفضل .

• • •

إن الإنسان يحقق ذاته ويجاوزها دائما . . والمستويات التى عبّر فيها عن استشرافاته الدينية ، والعلمية ، والفلسفية تختلف وتتفاوت لهذا السبب ـ أعنى مجاوزة ذاته .

ولكن القاعدة التى لا تكاد تتخلف ، والتى ينبغى أن نكون على وعى بها هى أنه يسير عبْر نفسه .

إنه يتلقى احتياجاته ويستجيب لها . . ويكتشف قُدُراته ويعبر عنها .

ونفسه هى كل هذا العالم المتلىء الفعم بالأسرار . . عالَمه النفسى ، والعقلى . . عالَم شعوره ، وفكره ، وإرادته .

لهذا يكون ظلما أكيدا له ، وجهلا واضحا به ، أن نسجنه فى زاوية من زوايا وجوده الفسيح المتراحب ونحصر كل استشرافاته ونشاطه فى انعكاسات هذه الزاوية وحدها .

ذلك أن جوهر العمل الإنسانى ، هو تحقيق الكيان الإنسانى ، ودَعْمُ انتشاره المستمر ، ونموه اللانهائى ، حتى يتمكن الإنسان دائما من عملية التخطِّى والتجاوز التى يتم بها معراجه .

والكيان الإنسانى متعدد الاحتياجات كما أسلفنا ، ومن ثم فلا بد أن تحظى بالتقدير والاحترام كافة استشرافاته الدينية ، والعلمية ، والفلسفية ، مادامت وثيقة الصلة بنقائها الفطرى . ومادامت بمنأى عن الإضافات الكاذبة المفتعلة التى تطفلت عليها عَبْر الزمن .

وهكذا نتلقى بالحفاوة سعى الساعين لتحرير وجودنا ، والساعين لإعلاء كلمة الله فى أفئدتنا ، والساعين لربطنا بحركة التاريخ ربطا يجعلنا سادة الإنتاج لاعبيده .، والساعين لأرباء مكانة العلم .، والداعين للاعتماد عليه فى كل شئوننا .

ونحن نبارك الحوار والجدل ، بل والنزاع الفكرى بين هؤلاء جميعا بعضهم لبعض إذا كان تركيز كل فريق منهم على اتجاهه يعنى إبراز المزايا النهائية ، أو الممكنة لهذا الاتجاه . . أما حين يعنى هذا التركيز التفرد والسيطرة ، بمعنى أنه وحده الحق ، وما سواه باطل وغرور ... فآنئذ يحق لنا أن نشك كثيراً فى قيمة هذا الادعاء

لسنا نحاول بهذا عقد صلح بين الفلسفات ووجهات النظر الكبرى .

إنما نريد أن نزكى فكرة تبلغ من اهتمامنا أقصاه .، هى أن الإنسان

— كما أسلفْنا — يسير عَبْر نفسه .. ونفسُه عالم مملوء بالاحتياجات . وطبيعته النهائية لم تُعرف لنا بعد حتى نتعسيد مِزاجها الأوحد .

ولذا ، يتحتم جعله المعيار لكل عمليات تطوره وحياته . . ويتحتم احترام احتياجاته النابعة من أعماقه .

ولقد حَذِق الإنسان الدرس من أقدم عصوره . فواءم مُواءمة فطرية ذكية بين كل احتياجاته دون أن ينقسم من أجلها على ذاته .

كان يرسل الطرف فى خشوع نحو معبوده . وفى نفس الوقت يتابع محاولاته المتواضعة للكشف والاستخدام اللذين يسيطر بهما على عالمه ، وكان يكتشف علاقاته وينظمها . ويدّعم وُجوده ـ فى ذات الوقت الذى يبنى فيه مجتمعه . .

صحيح أن بعض مراحل تقدمه ، تفسح الطريق دوماً لمراحل أخرى جاء دورها . . لكن ذلك لايعنى تهدم بنيانه . . بل يعنى تكامل البناء .

وبعبارة أخرى نقول : إن الإنسان خلال تقدمه لايفقد السيطرة على نفسه ، وإنما يُعزّزها ويظفر بالكثير من وجوه إدراكها . . وهو بهذا لايتخلّى إلا عن تلك الاحتياجات العارضة التى كان لها دور موقوت، بينما يظل متشبثاً بالأخرى التى لها بجوهره وشائج وأسباب .

والإنسان لا يعرف أنصاف الحلول ، ولا يَقْفِلُ راجعاً عند منتصف الطريق . وإنما يذهب بغرائزه وبأشيائه إلى نهاياتها . . ثم يجاوزها إلى

سلوك يتضمن أسباب كفايته فى مستوى أعلى . .

وكما أنه قادر على تحويل غرائزه الحيوانية إلى حاجات إنسانية . . فسيكون قادراً على تركيز هذه الحاجات فى النمط أو الأنماط الملائمة وعلينا — إلى أن يفعل هذا — أن نحترم احتياجاته القائمة . .

إن الذين يحاولون وضع الإنسان داخل إطار فلسفى معين يشبهون الذى يحاول تركيز أخبار الهرم الأكبر فى هـذه العبارة « مجموعة من الحجارة المرصوصة فى ارتفاع طوله . . . وقاعدة عرضها . . . » . . !!

فالهرم الأكبر فعلا مجموعة من الأحجار ، ولـكنه ليس ذلك وحسب . . بل هو أسرار وتاريخ ، وحضارة . . هو عالم حافل بمعجزات العلم ، ومتطلبات الروح ، وعمل السواعد الشِّداد . . ! !

كذلـكم الإنسان لا يستطيع أحد أن يدَّعيه لنفسه ، لا رجل الدين ، ولا رجل العلم ، ولا رجل الفلسفة . .

ومصايره ليست بيد مُعتَقَده وحده ، ولا بيد الفلسفة ، وحدها ولا بيد العلم وحده . .

إنما هى بيده . . يد الإنسان العائش وسط احتياجاته ، المدرك تبعات حياته .

وكما تألَّق هذا الإنسان فى قلب محمد والمسيح ، وموسى وإبراهيم ، تألَّق أيضا فى قلب بوذا . . وتألق كذلك فى قلب الفارابى ، وابن رشد ،

وابن سينا ، وأرسطو ، وهيجل ، وماركس ... وتألق أيضاً فى قلب كوبرنيكس ، وابن يونس ، وجاليليو ، ونيوتن ، وأنيشتاين ، وداروِن ، وجابر بن حيان ، وابن مسكويه وتألق فى قلب أبى بكر الرازى ، وباستير . . وفى قلب المعرّى وشكسبير .

وهو فى كل هذه التألقات التى تفاوتت منازلها ومصادرها لم يكن يتنزه أو يزجى فراغاً .. وإنما كان يَعْبُرُ نفسه ، ويُعبِّر عنها .

كان يكشف عن حاجة فى صميم كيانه ورسالته ، تدعوه للتحليق فى كل هذه الآفاق جميعاً .. آفاق الغيب وآفاق الشهادة ... آفاق الدين ، وآفاق العلم ، وآفاق الفلسفة ...

الإنسان مادة حضارته

كان « ڤولتير » يقول : « أريد أن أعرف الخطوات التى سارها الإنسان من الهمجية إلى المدنية » و — ڤولتير — بعبارته هذه يصور حاجة من أذكى حاجات وعينا الإنسانى .

فمعرفتنا كيف سار الإنسان ذلك الشوط المديد المُنْهك ، وكيف غادر الغابة إلى المدينة ، والوحشية إلى الحضارة ، وفى أية قافلة مقتحمة مُكابدة اجتاز الصعاب ، وتخطّى الأهوال ، واقتحم المخاطر . .

معرفتنا هذه ، وحسن إدراكنا لهـا أمر ذو بال وخطر ، فى تقييم الإنسان واكتشاف دوره .

وإذا لم يكن هذا الكتاب مجالا لتفاصيل هذه المعرفة ، وتتبع خطوات الطريق جميعه ، فأنه — وحسبه هذا — سيكتفى منها بالسّمات التاريخية التى تنبىء فى صدق ، كيف كان الإنسان ، ولايزال ، مادة حضارته .

لقد أَلِفْنا أن نربط بين المظاهر الحضارية ، وبين الطبيعة .. أو بينها ، وبين ظروف أخرى موضوعية .

فمثلا ، الحضارات التى قامت على شاطىء البحر الأبيض ، وعلى شطآن أنهار النيل ، والفرات ، ودجلة ، والكنج ، والدانوب ، والسين والتايمز . . كثيراً ما نجعل هذه الشطآن مادة تلك الحضارات .

ونحن ندرك بداهة أن هذه الحضارات لم تكن شيئاً ثاوياً داخل أصداف البحر ، وقيعان الأنهار .

ولطالما لبثت المحيطات والبحار ساجية أوهادرة ، تصطفق أمواجها آلاف القرون فى خواء مُوحِش حتى أتاها الإنسان . . وعندئذ طوّعها لأغراض وجوده ، وغَرَس على ضفافها الهاجعة مباهج فنه وروائع حضارته .

وكذلك نصفُ عصرنا هذا بعصر الآلة .. وننطق كلمة « الآلة » فى فُتون ، وهُيام ، وتبتُّل .. وكأنما نريد أن ننسى فى ضجيجها الحافل شأن خالقِها العظيم .. الإنسان .. ! !

الحق أننى بهذه السطور أقرر بديهة معروفة .. وليس أسوأ ما فى الأمر حاجتنا إلى تذكرها وتدبرها ... بل حاجتنا إلى التوسل بها للدفاع عن الذكاء الإنسانى الذى هو فى عصرنا هذا موضع التندر والاتهام .. !

أجل ، إن الذكاء الإنسانى الجدير بكل ثقة وكل حفاوة وكل احترام يُتهم اليوم ، كما اتهم فى عصور سالفة بجريمة القتل ، والقضاء على الجنس البشرى كله ..

لقد كان هذا شأن الناس معه فى عصور خلت .. بيد أنه فى عصرنا هذا يأخذ أوفى حظوظه من هذا الاتهام .. ! !

كلما اختَرَعَ سلاحاً جديداً .. كلما اكتشف من قارات المعرفة والعلم جديداً .. طار صواب الناس ، وقالوا : وداعاً للحياة .. شهيدة ذكاء الإنسان وغروره .

والناس فى هذا التطيرُّ معذورون ، وملومون .. معزورون .. لأن الذكاء الإنسانى فى انطلاقه الجسور يخطف أبصارهم ، ويَفْجأُهم بالمعجزات التى ما كانت تخطر لهم ببال ، فيتركهم سُكارى ، وما هم بسُكارى .. !

وملومون .. لأنهم لايبسطون عقولهم بعض البسط فتعود إليهم بكل أسباب الثقة بذكاء الإنسان .

إنهم يركِّزون أبصارهم على الأفراد ، والجماعات ، والحكومات ، والمخترعات ، والأحداث ... وطبيعى أنه من الميسور لهذه القوى إذا احتدم التناقض بينها واضطربت موازينه ، أن تنتهى إلى كارثة الختام ..

بيد أنهم ينسون الحقيقة الناصعة الفاعلة والسائرة وسط هذا الشتات .

أجل ، ينسون الإنسان .. !

وسيبدو لكثيرين أن يتساءلوا : وما الإنسان ؟ . أليس هو هذه الأشياء التى سلفت : الأفراد ، والجماعات ، والأحداث .. ؟؟ .

أجل ، ما الإنسان الذى هو مادة حضارته ، وأستاذها ، وخالقها ؟ ؟

هل هو الفرد .. ؟ أم هو الجماعة .. أم هو التاريخ والحركة الإنسانية الداهمة .. ؟؟

أم هو شىء خارج عن هذه جميعاً .. ؟ ؟

الحق أنه لا بد من تتبع التفكير الإنسانى فى هذه المسئلة قبل أن نظفر بجواب ؛ فقد اختلفت أحكامه ، وتعددت افتراضاته فى سبيل الوصول لمن صاحب الدور الفعال فى بناء حضارتنا .

* * *

يخرج من بين الجماهير الطامية ، والجموع الغفيرة أفراد يرتفعون فى الأفق كالشموس .. هذا رسول ، وهذا عالم ، وهذا فيلسوف .. ولا يكادون يُطِلُّون على الناس برسالاتهم حتى يلقفوهم ويقودوهم إلى الطريق الذى يختارون . ونبصر أثرهم فى توجيه الحوادث واضحاً ، فننعتهم بأنهم المغيِّرون وجه التاريخ . ونرى الخلود الذى يظفرون به عَبْر الأجيال ويتفوقون به على الزمن فلا يداخلنا ريب فى قيمتهم كأفراد أفذاذ . .

● — مثلا نسمع اسم سقراط ، فنتساءل من فورنا أين أمة سقراط .؟ أين أثينا التى ظهر فيها وخفق فى سمائها .. ؟

لقد فنيت أمته ، وفنيت مدينته ، وبقى — الفرد — سقراط يتنقل فى وعى الأجيال .. بل لقد تحول إلى شمس بشرية ، دارت فى فلكها كواكب من البشر ونجوم ..

● — ونسمع اسم نابليون ... رجل كتب فى طفولته وهو تلميذ صغير لافتة وضعها فوق مكتبه « يجب أن أكون جنرالا » .. !

ومع مطلع الصباح كل يوم ، كان كما يقال — يستقبلها فى مرح صبيانى ، وأيضاً فى جدٍّ طفولى .. ويؤدى لها تحية عسكرية ، ويصرخ « يجب أن أكون جنرالا » وأيا ما يكون شأن هذه القصة ، فقد كان جنرالا . ، وامبراطوراً ؛ وغازيا ؛ فاتحاً .

ولقد ذهب يقود بفرديته جيشاً لا يتعب ، ولا يسأم ، ولا ينهزم حتى الْتقى أخيراً بالجنرال - يناير - على حد تعبيره فجمدته ثلوجه . وبدده صقيعه .. وحين كفّ الفرد نابليون عن العمل وتخلف عنه حظه رجع التاريخ عن الطريق التى كان سائراً فيها معه. وعاد يلتمس طريقاً أخرى

هكذا تصورنا دور الفرد فى مغامرة نابليون ..

● — وفى مستوى أعلى يتبدى لنا دور الفرد فى رجل مثل «ماركس»

رجل حادّ الذكاء ، إعصارى الإرداة ، كتب «رأس المال» فحرّك به المعرفة الإنسانية وغير اتجاهها ، وأثار فى أعماق المحيط البشرى مدًّا ثورياً عالياً .

ومن المسلّم به أن هذا الفرد بذكائه النفاذ ، بدأ يدفع التاريخ منذ أرسل نذيره ، وهو بهذا يشير إلى دور الفرد فى صنع التاريخ ، وبالتالى فى إنشاء الحضارة ..

● — وفى مجال السياسة يشرئب أمامنا رجل ملأ الدنيا وشغل الناس ، هو « بسمارك » ..

هذا الألمانى الداهية ، ماذا كان مصير ألمانيا ، والاتحاد الألمانى ، بل والتاريخ الألمانى كله لو لم يظهر هذا الفرد المفعم ذكاء وحيلة .. والذى يحمل إرادة لاتعرف التهيب ، ولا التردد ، ولا العجز .. »

× ×

هذا منطقنا حين يبهرنا دور الفرد ، ويجذبنا بَرِيقُ بطولته ..

لكننا نعود فننبهر بضياء آخر ، وننشىء منطقاً آخر — حين تنادينا « الجماعة » كاشفة عن كفايتها وسلطانها .. عندئذ نتجه صوبها ، ونكاد ننزع الراية من يد الفرد ، ونسلمها إياها..

فكل فرد مهما عظم دوره ، واتسعت كفايته ، ليس فى التحليل النهائى سوى ثمرة بيئته ومجتمعه

● ● فسقراط — مثلا — نشأ فى مجتمع يتمتع بحرية سابغة فى الفكر والقول والعمل . مجتمع يمارس الفلسفة على نطاق واسع ، ومع هذا فَثَمّة فراغ كبير بين تفكيره ووجدانه . فهو — أعنى المجتمع — يتحدث فى كل شىء ، ويفلسف كل شىء ، ويتعقب بالفحص والتفسير كثيراً من ظواهر الكون والحياة . بيد أن وُجدانه يتخشع للأساطير وينحت من الحجارة آلهة معبودة

إنه يحدس بيديهة سامقة ، أن الأرض كرة ، وأن الذرّة تنطوى على طاقة هائلة ..

ثم ينتقل من هذا الحدس الذكى إلى الخشوع الضّارع أمام آلهة الأولمب الذين يتداول عنهم من أنباء النزاع والصراع والتنافس ما يضحك ويثير .. ! والمجتمع يحسّ هذا التناقض ، ويتطلب من يحل عقدته . أجل يتطلب رجلا ذكيا يملأ الفراغ بين عقل الجماعة ووجدانها . . أو بتعبير آخر ، يزحف بعقل الجماعة نحو غريزة القطيع فيها ، وينتزع من الخرافة الأرض التى تقف عليها ؛ ويضع أمام كل أسطورة علامة استفهام ضخمة

وهكذا ظهر أقدر الناس على هذا العمل ، وكان سقراط ..

• •— ونابليون . . ماذا كان نابليون . . ؟ ؟

إنه ثمرة حكومة الأدارة فى باريس من جانب . ، والطبقة الوسطى « البرجوازية » من جانب آخر . . لقد انتدبته حكومة الأدارة ، كقائد عادى لحملة عادية . . فلما كشف عن كفاية عسكرية تلائم أطماع هذه الطبقة وتستطيع أن تخدم أهواءها ، تلقفته البرجوازية الفرنسية ، وسلطت عليه الأضواء ، وتولته بكل وسائل الدعاوة ، وصنعت له الأمجاد التى جعلته بطلا أىّ بطل : . ومن ثمّ ركب نابليون ثَبَجَ الشهرة وسُخِّرت له كل قُوى دولته فضرب بها ذات اليمين وذات الشمال .

● ● — ومارکس

لقد التقى بشبابه فى مجتمع ثائر متطلع .. فمقاطعة « رينانيا » التى نشأ بها ، كانت قد رحّبت بجيوش فرنسا التى ستنقذ أهلها من الأقطاع ، وتُجهز على السلطان المطلق الذى يعيث به فى الأرض فسادا ، الأمراء الإقطاعيون . ولـكنها بعد عشرين عاما قاست خلالها قسوة الفرنسيين سيا فى نهب الضرائب من أهلها ، عادوا ييممون وجوههم شطر «بروسيا» :. ثم يعاودهم الحنين مرة أخرى إلى فرنسا بعد أن أذلهم من جديد الحـكم البير وقراطى الاضطهادى فى بروسيا :

وكانت الأفـكار الاشتراكية تزحف .. بل كان شبح الشيوعية — كما يقول لوفافر — يهدد أوروبا ويهيم فى آفاقها .. كل هذا قبل أن يخط « ماركس » سطراً واحداً فى الماركسية .

ولقد بدأ شاعراً ، يهوى الشعر ويعد نفسه ليـكون أديباً ، وكان عضواً فى نادى الشعراء :. ولـكن روح الجماعة التى يعيش بينهـا ، وانطلاقها الثورى آنئذ ، والأزمات الاقتصادية الماحقة ،والاضطهاد الوعر الذى سلـكه غليوم الرابع ، كل هذا لوَى زمام « ماركس » إلى الفلسفة ثم إلى الماركسية نفسها .

× ×

هكذا نرفع لواء الجماعة ، ونجد من المنطق الذى يُؤَلِّه دورها ، مثلما وجدنا من قبل ، المنطق الذى يُجَلِّى دور الفرد .

بيْدَ أن وعينا لا يلبث أن يتجه نحو مسارٍ آخر ، إذ يبصر التسلسل الواضح ، والوعى المستسرّ فى حوادث التاريخ وفى حركته ، فينادى بأن صاحب الدور الحقيقى فى تطور الناس وحضارتهم إنما هو التاريخ .

● ● ● — ففردية سقراط ، ومجتمعه ، كانا عاجزين عن إنجابه وإبداع عبقريته لولا حركة التاريخ التى كانت قد بلغت بأثينا ، وبالفلسفة فى أثينا مُستوىً عالياً يتيح ظهور مثل هذه الموهبة الشامخة .

وآية هذا ، أن « سقراط » لم يكن يمثل مجتمعه . . بل كان أكثر من ذلك ، يمثل الاستعداد التاريخى لهذا المجتمع .

أو بتعبير آخر . . كان يمثل الدور الحقيقى الذى يستطيع مجتمعه أن يقوم به ، وإن لم يقم به فعلا لسبب أو لآخر .

ولكى نوضح هذا نضرب مثلا بجزيرة العرب فى جاهليتها .

إن الشكل الخارجى لتلك الجماعة ، كان يبعث على الظن بأنها لا تصلح لغير رَعْى الإبل ، وقرض الشعر ، وعبادة الأصنام ، ومعاناة الرياح العاوية عَبر الصحراء .

ومع هذا ، فقد كان استعدادها التاريخى الذى لم يكن منظوراً ولا محسوساً ، يؤهلها لأعمال باهرة سامقة . . ولم يكد الرسول عليه

السلام يلمسها لمسات هادية حتى انطلقت أسرع من الضوء فى تحقيق المعجزات . ! !

كذلك كانت أثينا . . كان استعدادها التاريخى مختلفاً عن شكلها الخارجى ولقد أدرك هذا سقراط الذى وعى حركة التاريخ واستجاب لها .

صحيح أن مجتمعه هذا ، هو الذى أكرهه على نحو مّا أن ينسحب من الحياة بجرعة من السم . . بيد أن هذا الحكم نتاج الهوى الاجتماعى فى أمة سقراط ، وليس نتاج الرشد التاريخى الذى ظهر فيما بعد ، وبعد أن أيقظه سقراط بموته أكثر مما كان يوقظه فى حياته .

● ● ● — ونابليون كذلك ، ليس ثمرة شخصه ، ولا ثمرة مجتمعه. بل هو الابن الشرعى للتاريخ .

قد يكون ابناً عاقاً ، فالتاريخ ينجب البررة والشريرين ولكنه على حال ، ابنه ، وثمرته .

والمنطق فى توكيد هذا ، يسير هكذا .

لقد سجل نابليون انتصارات هائلة عُرِف بها وعُرفت به . . وكان ناس زمانه وبعد زمانه لا يرون فوق خشبة المسرح سواه .

ولكن هل كان نابليون قادراً على براعته تلك لو لم تكن حركة التاريخ معه . . ؟ ؟ كلا .

لقد كان التاريخ هناك ينتظر نابليون — أىّ نابليون — . أى أن

حوادث الماضى كانت قد انتهت فى مسارها إلى نقطة تسمح بل تستحث قيام مغامر من نوع نابليون .. والتاريخ كما ينبغى أن نعلم ، كالعلم .

لا يعرف الخير والشر ، ولا يقول هذا طيب وهذا خبيث . . وإنما يعرف فقط ، هذا لازم لعمليات التطور ، أم غير لازم .

ولقد كان رُوح العصر يهتف بواحد من طراز «بونابرت» ويُفتن به فُتوناً شديداً .

كان التاريخ بحاجة إلى رجل يملأ أوربا ذعراً وقلقاً ، ويعبث بعروشها وامبراطورياتها الباذخة ، ويعمم بأية وسيلة مفاهيم الثورة الفرنسية ، ويوقظ فى الجماهير روح التمرد والرغبة فى التغيير .

ولهذا رأينا بعض البلاد التى وطئها غازياً تستقبله استقبال الفاتحين ، عن إخلاص وحب ، لا عن خوف ومُسايرة . لأنهـا كانت ترى فيه منقذاً كبيراً ..

تُرى هل يقدر « نابليون » أن يعود إلى عصرنا هذا .. ؟ ؟

أعنى ، هل يستطيع أحد مهما تكن مواهبه وقدرته على المغامرة وولعه بها أن يمثل دور نابليون اليوم ، يمشى فى الأرض غازياً .. يفطر بدولة ، ويتعشى بأخرى .. ؟ !

كلا . . ولقد حاول هتلر أن يكونه ، فانتهى كزوبعة ضالّة . . ! !

لمـاذا . . ؟

لأن روح العصر مختلف .. وحركة التاريخ تتطلب نوعاً آخر من الرجال ، ومن الأحداث .. وهي — مثلا — تؤثر اليوم « غاندى » واحد ، على مائة ألف هتلر مجتمعين .. !

● ● ● — وماركس :

ما كان نبوغه الشخصى ، وما كان مجتمعه بقادرين على منحه هذا الدور الهائل الذى قام به لولا الحدث التاريخى ..

ذلك أن التمزق الذى كانت تعانيه الرأسمالية ، كان لابد أن يجد من يكشف عن أسبابه الدفينة ، ويتنبأ له بمصيره .

.. .. آنئذ — الذى كان يُرسل نُذُره ، وإرهاصاته ،

ر به ويرسم له طريق العمل الذكى الواعى الثابر

ركس « عَلاَمة اجتماعية » تحمل سمات مجتمعها وبيئتها

ب .. بل كان « عَلاَمة تاريخية » تشير إلى مقادير للتاريخ جديدة وشك أن تأخذ دورها .

● ● ● — وبسمارك :

ماذا كان نبوغه ، ومجتمعه ، سيعطيانه ، لو لم تكن الظروف التاريخية قد حددت ساعة الصفر للاتحاد الألمانى .. وأسرّت إلى « بسمارك » بميعاده .. ؟ !

ولقد اعترف هو بهذا اعترافاً واضحاً فى خطبة ألقاها فى الريخستاغ الألمانى ، قال :

« ليس بوسعنا أن نتجاهل تاريخ الماضى ، ولا أن نصنع »
« المستقبل . . »

« وإن الناس ليبالغون فى تأثيرى على الحوادث التى »
« عرفت — فقط — كيف أستغلها . . »

« ولكن لا يخطر ببال أحد أن باستطاعتى صوغ التاريخ »
« فما أنا بقادر على ذلك حتى بالاشتراك معكم . »

« صحيح أننا معاً نستطيع مقاومة العالم، بَيْدَ أننا لا نستطيع »
« أن نصوغ التاريخ وعلينا أن ننتظر حتى تتم حوادثه »

* * *

هكذا نضرب الأمثال لوعينا الإنسانى حين يشغفه دور الفرد فيؤمن به . ثم حين يشغفه دور الجماعة فيؤمن بها . ثم حين يشغفه دور التاريخ فيؤمن به ، ومع إدراكنا الحق لدور الفرد ، والجماعة ، والتاريخ ، وأيضاً مع احترامنا للوقفات التى وقفها التفكير الإنسانى عند كل منها الفرد ، والجماعة ، والتاريخ فإننا نريد أن نتخطاها جميعا ، ونجاوزها .. معلنين أن صاحب الدور الحقيقى فى كل تقدمنا وارتقائنا ، إنما هو الإنسان ..

أجل .. ليس هو الفرد .. ولا الجماعة .. ولا التاريخ .. ولكنه: الإنسان .

وهنا يعود إلينا السؤال : وما الإنسان .. ؟ ؟

ولعل من الخير أن أعترف بالصعوبة التى أُحِسُّها وأنا أسور مفهوم هذا الإنسان الذى أعنيه .. ذلك أننى أُحِسُّه أكثر مما أعرفه .. وأستشرفه برؤيا الحدْس ، أكثر مما أبصره برؤية العقل ولكن هذا لن يمنعنا عن السير معاً صوْب اكتشافه .

وأود أن أذكر أولا ، أن خلافنا الفكرى حول دَوْر كل من الفرد ، والجماعة ، والتاريخ ، إنما يتضمن الرغبة فى مجاوزة هذه كلها إلى شىء أقرب إلى الحقيقة إن لم يكن الحقيقة ذاتها .. وذلكم الشىء هو الإنسان ..

فالحافز الحقيقى للذين يؤمنون بقيمة الفرد ، وبنيطون به البطولة ، إنما هو فى الواقع ، تكريم الإرادة الإنسانية ..

والحافز الحقيقى للذين يؤمنون بالجماعة ، وينيطون بها البطولة ، إنما هو تكريم التضامن الإنسانى ..

كما أن الحافز الحقيقى للذين يؤمنون بالتاريخ ، ويضعون الزمام فى يده ، هو تكريم التراث الإنسانى ، والحركة الإنسانية .

فالإنسان هو الرؤية الحقة لنا فى عالمنا الإنسانى هذا ..

ونحن لانصاب بالقنوط من أمره ، واليأس من مستقبله إلا حين تغيب عنا حقيقته

وكأيٍّ من فيلسوف وعبقرى تَغشّاه اليأس لهذا السبب .

فالأغريق حين رأوا التاريخ حلقة مفرغة ..

والرواقيون حين صاحوا فى الناس : « لا تتوقعوا من المستقبل شيئاً » .. إنما ذهبوا هذا المذهب لأنهم لم يكتشفوا الإنسان ..

والفيلسوف الشاعر «جوته» حين يتنبأ بمستقبل لايبدى الله فيه اهتماماً بالجنس البشرى ، ويرى من الخير أن يعيد الخلق من جديد .. إنما يغلبه اليأس على هذا النمط ، لأنه لم يكتشف الإنسان

وأرسطو نفسه ، حين قال : «ياأحبابى .. ليس فى الدنيا أحباب» ..؟؟ إنما قالها فى ساعات غُمَّ عليه فيها حقيقة الإنسان

وكل الذين يعزلون الإنسان ، وينْسَوْن مكانه بين صفوفنا ، وعالمنا .. كثيراً ما يفترسهم التشاؤم والقُنوط

ومن عَجب أن الذين واجهوا الحياة بأوفى حظوظ التفاؤل والثقة والاقتدار من الأنبياء ، والرواد ، وقادة الحق والخير .. كانوا على وجدان ذكى بحقيقة الإنسان .

هذا الإنسان كيف نتعرف إليه ..؟؟

هل هو نحن ..؟ أم هو شىء سوانا ..؟؟

أهو خارج عنا .. أم كامن فينا ..؟؟

الحق أنى لاأريد أن أعطيه معنى تجريدياً ، يفقده وجوده المادى العظيم.

ولكنى كذلك ، لاأريد أن أحصره فى تلك المعادلة الرياضية التى تجعله حاصلا لمجموعة من الكربون ، والنتروجين ، والأكسجين ، والهيدروجين ، والكبريت والملح ، والحديد .. ؟

وإنى لأبدأ تعرفى إليه بملاحظة تطورنا البشرى الهائل .

× ×

● إنه — أعنى التطور — يمضى داخل سلوك ملىء بالمتناقضات والعوائق . ومع هذا تجىء نتائجه دائما ، كما لو كانت مقدماتها على حظ عظيم من الدقة والتناسق ، وكما لو كان طريقها مهدا متلاحباً مترَعاً بالحوافز .

ونضرب لهذا مثلا نعيشه الآن كما عاشه أسلافنا جميعا فمجتمعنا الإنسانى ، يعانى من الأنانية فى كل مكان ..

الأفراد . يُفتن كل فرد بنفسه ، ويضع قائمة مطالبه من الحياة ، كما لو لم يكن هناك آخرون ينبغى أن يكون لهم منها نصيب .

كل فرد ، لايكفيه أن ينال حقه ، بل يريد ماليس له بحق ، بل ، وحقوق الآخرين جميعا .

والجماعات كذلك ، كل أمة وكل دولة ، مهما زعمت لنفسها من مُثُل عالية . تتجه بطريقة تلقائية صَوْب نفسها ، وشعار كل جماعة — أىّ جماعة — هو « أنا أولا : وأنا ثانيا ، والآخرون أخيرا »

وطبيعى أن ما تفضى إليه هذه الأنانية من أثرة ونزاع ، وحروب ، يخرب الجهود الانسانية ، ويصيبها بشر مايمزقها .

ومع هذا ، فالحاصل النهائى لـكل تلك العمليات الرديئة التعسة ، هو التقدم نحو الخير ، ونحو الحق ، ونحو المحبة ، والغيرية والسلام

أجل ، إن الطريقة التى يتحول بهاالشر إلى خير لتبهرنى ، وأستشرف من خلالها الإنسان .

حين صاح « البابا إربان » عام ١٠٩٥ فى مسيحيى أوربا « إن الله يريد منكم أن تقاتلوا عن دينه » وقرع بصيحته هذه أجراس الحروب الصليبية .

كانت صيحته ، وكانت تلك الحروب بكل أهوالها ، جسراً عبرت عليه حضارة العرب والإسلام ، وحضارة اليونان التى كانت مع المسلمين إلى أوربا ..وتحولت رزايا الحرب إلى مكاسب تفوق كل حسبان وتقدير ..!!

كما كانت سبباً حاسماً ومباشراً فى الإجهاز على الإقطـاع هناك

وحين اكتسح أوربا عام ١٣٤٨ وباء الموت الأسود ازدرد الآلاف واللايين فى شراهة ماحقة .. ولـكنه سرعان ما تـكشف عن خير مذهل ..فقد خلق الأحداث التى كانت سببا مباشراً فى إنهاء عهد الرقيق

ويدفع كهنة أورشليم بالمسيح إلى صليب كبير فيكون هذا إيذانا ببدء مجده وخلود كلماته .

ويأتمر الأشراف فى قريش بمحمد ليقتلوه .. ويضطرونه للرحيل عن بلده وداره . . فتتحول هذه المحاولة الظالمة القاسية إلى تاريخ يتسع لحضارة تملأ ما بين الشرق والغرب ، وتدوى فى جنباتها دعوة القرآن . .

هنا ، ألمح وجود الانسان ، وأتصوره مضموناً حياً لكل إمكانياتنا الخيِّرة ، ولكل أغراض وجودنا — يقود خطانا ، ويصطنع من آفاقنا مزية ومعراجاً .

× ×

● — وأبدأ تعرُّفى إليه كذلك بملاحظة خيالنا ..

كل خيالاتنا المضحكة عَبْر الأجيال ، تحولت إلى واقع رشيد أكيد

تخيلنا يوماً ، أن نطير .. واصطنع بعضنا فى سذاجة أجنحة ، وحلق بها بضع ثوان ثم هوى ..

وضحكنا يومها ، وسخرنا وتندرنا .. وإذا الخيال الساذج يتحول إلى واقع يالَهُ من واقع . . !!

وتخيلنا أن نركب البحر ، ونتخذ طريقنا فيه سَرَبا ، فألقى بعضنا فى مجرَى ماء بجذع شجرة واحتضنه ، وإذا بجذع الشجرة يصير سُفُناً كالجبال ، ويُسخَّر البحر لنا ، كأنَّه يابسة ذَلُول !!

وتَخيَّلْنا « المدن الفاضلة » فإذا هى تأخذ طريقها إلى الواقع على أتم نَسَق ، وفى أحسن تقويم ..

وفى كل شىء كان خيالا بعيدالمنال .. ثم صار حقيقة ، أسأل نفسى: كيف حدث هذا ، وما معناه .. ؟؟

ومن الذى كان يتخيَّل .. نحن .. أم الإنسان . . ؟؟

وأتصور الإنسان كما لو كان « المضمون الحىّ لكل تجاربنا وتصوراتنا » ..

أجل . أتصوره قد جاء الدنيا مُزوَّداً بكل تصوراته .

وأحسَب الأمر سار على هذا النمط .. فحين ودَّع حيوانيته ، وبدأ عصر إنسانيته ، كان يحمل معه حصيلة كبرى من التجارب والمشاهد والعمليات الماثلة المعقدة التى شهد تركيبها جزء فجزءاً .. والتى التقطها جميعاً « لاَشُعُورُه » . واحتفظ بها فى قراره المَـكين ..

وإنَّ أقصى نقط انحطاطه فى الماضى . ، لتُشير إلى أقصى نقط كماله فى المستقبل .. وإنه ليدفع كل القوى التى ملء يديه لتحقيق نهج يكاد يكون كاملا ومفصلا فى فطرته لاَوَعْيه ، وإن كان عقله الواعى يكتشفه شيئاً ، فشيئاً . لقد عاصر الإنسان قبل أن يعى نفسه ، كلَّ أشياء الطبيعة حواليه ، رآها ، وهى تتكون ، وهى تنحل . وهى تتركب ، وبَصُرَ بخصائصها ، واستقر كل هذا فى باطنه .. فلما بزغ فيه العقل

تحركت فطرته لتعبر عن نفسها .. بل لعلّ العقل ذاته كان الأداة التى فجّرتها طبيعته المزدحمة اللائى لتعبر به عن نفسها ، ولينقل إلى العالم الخارجى أسرارها ومضمونها .

فإذا بسطنا أيدينا اليوم إلى عُشب وقلنا : إنه شفاء للكبد ، فليس هذا إلا لأن الإنسان الكامن فينا قد زامل هذا العُشب من عهد قديم .

وإذا أشرنا إلى شلاّل يتحدر ماؤه الهادر الصخّاب ، وقلنا : سنوَلّد من هذا التدفّق كهربا .. فأيضاً ؛ لأن الإنسان العائش فينا أبصر هذا المشهد على الطبيعة ذات يوم وأبصر البرق والضياء يندفعان من الأمواج المتقاذفة فى عُرام وجبروت ..

اً عن الطائرات ، وحلّقنا فى جو السماء بأجنحة ، ل تناهت فى البساطة ، فسيكون وراء هذا ، الإنسان الذى ... غبرْ تطوره السحيق زواحف تزحف على الأرض إلى جواره ، وفجأة ، وبعد محاولات — فى عقله الباطن كل أسرارها — رآها تبسط جناحين ، وتذهب صاعدة فى السماء .. ؟؟

أى أن ذاكرته تسترد اليوم على نحو ما ، بلايين المشاهد والتجارب التى عاصرها وعاشها مع الطبيعة خلال تطوره المديد الممعن فى الطول والبعد .. ويتولى عقله الواعى بطريقة ما ، فضّ الأبهام والغموض عن تلك التجارب الراسية الراسخة ...

وقبل أن ننصرف عن هذه الـحكايات ، كما لو كانت وهما طريفا . علينا أن نتذكر حقيقة مماثلة تتـكرر كل يوم ، ويراها العلم بعينه ويلمسها بيــــده ..

تلك هى الطريقة التى تتطور بها الأجنة فى الأرحام .. فوقائع التطور البيولوجى للانسان ، والتى استغرقت بلايين السنين مذ كانت الحياة خلية .. حتى صارت إنساناً .. هذه الوقائع كلها يركزها الإنسان ، ويستعيدها ويكررها مع كل جنين .

فالجنين — كما يقول علماء البيولوجيا — يبدأ خلية ، ثم يأخذ شـكل الحلقة .. ، ثم هيئة السمكة حيث يتنفس بخياشيمه ، لا برئتيه .. ثم يصير حيواناً ذا أربع ، له ذنب صغير ، ويغطى جسمه الشعر .. ثم يصير إنساناً ..!!

نفس المراحل التى تقلّب الإنسان خلالها فى بلايين السنين ، يستعيدها فى ستة أشهر لا غير ، وبأصرار عجيب لا يفلت منه جنين ..

وهنا ألمح الانسان الموجود فى « لا وعيه » يفضى إلى الانسان الموجود فى « وعيه » لينجبا معاً ، الانسان المتفوّق على وعيه .. !

نحن نقول : إن العلم يغير وجه الأرض ، ويعيد كشف الحياة ..

وهذا حق .. بيد أن العلم نفسه لا يوجد إلا بمقدار ما يريد الإنسان.. ولا تسرى الحركة فى آلة إلا بمقدار ما يضع الإنسان فيها من حركة ..

● — وأبدأ تعرفي إلى الإنسان كذلك ، بملاحظة العبقرية الإنسانية التي لا أجد لها سبباً أي سبب ، لا في حركة التاريخ ، ولا في تيار الجماعة ، ولا في إمكانية الفرد

انظروا ...

« بتهوفن » الأصم ، ينشيء وهو فاقد لأهم أدوات الفنان ، ألحاناً، تتخطى كل مناسيب العبقرية والخلود .. !

و« غاندي » .. ذلك النحيل الضامر ، العادي في ثقافته ومظهره ، يتحول بمرْيه ومغزله إلى قوة لا تغلب .. !

و « الحلاّج » يحتضن عقيدة ، يُصاب من أجلها وتقطع أوصاله على خشبة الصلب ، وتُبتر أعضاؤه عضواً عضواً .. ثم لا يتخلّى عن عقيدته فحسب بل يبارك قاتليه ويقول عبارته المأثورة : « اللهم اغفر لهم فإنهم مافعلوا بي هذا إلا غيرة على دينك » . !

و « هنري توماس باكل » الذي قضى عمره كله عليلا مُوثقا ، يتعلم سبع عشرة لغة ، ويفكر بها جميعا ولا يستطيع — كما وصفه هكسلي — أن يرفع رأسه من كثرة ما كانت تحمله .. !

و « جماعة بدائية من العرب » تقطن صحراء قاحلة تحتضن ديناً رَشَدًا ، وتنشيء به حضارة عجبا .. !

و « شعب » مقرور ذليل جائع في أصقاع روسيا القيصرية . .

يتحوّل بصورة أذهلت « لينين » نفسه مهندس الثورة ومنظمها ، إلى طوفان بشرى داهم يشبه الأساطير

هذه العبقرية التى تظهر هكذا مكتملة فى الأفراد وفى الجماعات . . من وراءها . . ؟ إنه الإنسان . .

ستجد وراء الانطلاقات الكبيرة للجماعات أسباباً تاريخية قطعاً . . ولكن عبقرية الانطلاقة المتمثلة فى امتلاكها لكل عوامل الفوز ، شىء لا يمكن أن يجىء إلا من إرادة الإنسان . .

عندما قيل لـ « لينين » إن ثورة عاتية ، ملأت أرجاء روسيا ، لم يصدق ، وظن فى الأمر خدعة . . ذلك أن التاريخ يُزجى أسباب الثورة ، أو الحركة الاجتماعية الكبيرة . أما العبقرية التى يُتِمّ بها العملُ التاريخى نفسَه ! فأتاها الإنسان . .

والظروف الخارجية لا تصنع كل شىء . .

والعبقرية الإنسانية التى أقول إننى أتعرف بها على الإنسان ، تدعم هذا

فالنُّقل الحاسمة فى تاريخنا تتمثل فى بضع قوانين هامة اكتشفناها

- كروية الأرض وحركتها ..
- قانون الجاذبية ...
- نظرية النسبية ...
- نظرية أصل الأنواع ...

هذه الكشوف غيرت معالم تفكيرنا ، وحددت طريق حضارتنا ، وأسهمت فى كل ماجاء بعدها من إبداع واختراع ...

فهل نبحث عن سرها فى الظروف الخارجية أياما كانت هذه الظروف ... ؟ حاولوا إن شئتم ... أما أنا ، فلا أجد سرها فى شىء سوى الإنسان

وبعد هذه الأمثلة والتهويمات ، أستطيع أن أصوغ الكلمات التى تعرّف هذا الإنسان وتصور مفهومه

أستطيع أن أقول :

إنه شىء يشبه « المُطْلَق » فى عالمه ، وأرضه . .

إنه « الوعى الكامن » فى نوعه كله . .

أنه شىء يشبه عالم « المثل » عند أفلاطون . .

فالإنسان فى هذه الأرض ، هو المثال : . والأفراد ، والجماعات ، والتاريخ . . كل هذه ، هى الصور والانعكاسات . .

وهو بداية التطور الحى كله ، وقمته ..

بدايته ، لأن « الأميبا » التى دبت فيها الحياة لأول مرة على ظهر الأرض ، كانت ـ على نحو ما ـ تتضمن الإنسان ..

وقمته . ، لأن الأنسان عندما نحّى جانباً كل الكائنات الحية التى كانت تعايشه وتسابقه ، وتفرد بالسيادة ، تمثلت فيه قمة التطور الحى فى كوكبنا هذا .. بيد أنه « قمة » نامية . لأنها حية .. وإنه لذاهب

إلى أعلى دوماً حتى يحقق تبعات الأمانة التى حملها

لقد بدأ قانون الجاذبية مع بدء السموات والأرض والكواكب ..
ولم نكتشفه نحن إلا منذ أقل من ثلاثة قرون .. ولم يكن جهلنا به يعنى انعدام وجوده ، كما أن جهلنا به لم يعطل عمله ..

والانسان هو (القانون) الذى يحكمنا نحن البشر ، وينظم حياتنا الإنسانية ، ويرتب مقدماتها نتائجه .

ولقد قلنا إن الطبيعة الإنسانية لم يكتشف منها إلا القليل ..
ولسوف نكتشف الانسان فينا شيئاً فشيئا حتى يتجلى ذات يوم كماله
هذا هو الإنسان ، بالنسبة لعالمه ، وأرضه ..

أما عن صلته ببارئه وخالقه ، فعلينا أن نتقبل فى حُبور كلمة الدين فيه
إنه ابن الله ، فيما عَبَّر المسيح ..
وخليفة الله ، فيما قال محمد ..

وإن الايمان بهذا ، لا ينقص من قدر الإنسان بل يرفعه عاليا .. عاليا ..

فالمُوَاطن فى دولة عظيمة ، يزهو بأنه من رعاياها ومواطنيها ، ويستمد من عظمتها ثقة واقتدارا .

والإنسان ، ليس « مُواطنا » فى عالم الله وحسب . بل هو خليفته العظيم .

* * *

وهذا الإنسان ، هذا « القانون العميم » هو أصل القوانين الموضوعية فى دنياه ، ومن ثمّ فهو فوقها جميعا ، ولا يتحكم فيه منها شيء ..

وحسبنا أن نسأل أنفسنا :

لو لم يوجد الإنسان على الأرض ، أكانت القوانين الاجتماعية ستوجد .. ؟؟

بالبداهة ، لا ..

كانت القوانين الطبيعية ستمضى فى طريقها ، والعمليات البيولوجية ستستأنف سيرها .. أما القوانين الاجتماعية ، فمن كان سيوجدها ، لولا الإنسان . أو لولا بديله .. ؟ !

وهذا يعنى أن الإنسان سيد وجوده ؛ وسيد تاريخه ..

مامعنى أنه سيد وجوده .. ؟

ومامعنى أنه سيد تاريخه .. ؟

لنبدأ بالأولى ..

قلنا : إن الإنسان يحمل طبيعة ملأى بالتصورات والأسرار .. وأنه أخذ على كاهله ، أن يخرج خبء الطبيعة حوله .

وهو بهذا ، لا يعمل بقوى سحرية . بل بقوى منظورة واعية ..

وقلنا : إنه ليس معنى مجردا . بل هو مضمون حى اسكل

إمكانياتنا وتسامينا . . وذات واعية حالّة فينا جميعا أفراداً وجماعات .

وكل عمل من أجل تكريم الإنسان ، وبعث فرص اكتماله .
لن يكون له موضوع سوانا ، نحن البشر . .

وكل إساءة إلى فرد إنسانى واحد ، تعنى الإساءة إلى الإنسان فى تجلٍ من مجالى ظهوره .

والإنسان الميمم وجهه شطر الكمال العظيم ، لن يبلغ هذا إلا بقدر ما تبلغ الجموع البشرية من نبوغ عقلى وأخلاقى ، واجتماعى ، فكلما كثرت الجموع الممتازة المتفوقة المسيطرة على مصيرها ، كثرت معها فرص الإنسان فى الظهور ، وقرب يوم اكتماله .

وسيادة الإنسان على وجوده ، هى السبيل لتحقيق هذا النبوغ للجموع .

والوجود الإنسانى محكم البناء بشكل فذ ، وهو يرفض التصدع والانفصال . .

إنه ليس حلقات منثورة ، ولا ذرات تائهة . بل وحدة هائلة مكتملة يتوسطها الإنسان .

فالفرد فى حقيقته ليس فردا . . وإنما هو « تركيب اجتماعى » أو بتعبير أهدى سبيلا ، هو « تركيب إنسانى » .

ينقل لنا العلامة الأستاذ « أميل بربيه » عن العالم النفسانى

الكبير « بلدوين » هذه الفقرة مدللا بها على أن الفرد لا يعرف نفسه ، ولا يشعر بها إلا عن طريق شعوره بالمجتمع أولا ..

يقول [١] :

« لقد اكتشفنا أن الطفل لا يشعر بوجوده الذاتي »
« إلا بعد معرفته بشعور الآخرين ؛ فهؤلاء يبدون »
« في نظره مركزالردود أفعال ترتبط بحاجاته الخاصة .. »
« وهم النموذج الذي يتخذه أساساً لتصور شعوره »
« الخاص .. وبعد هذا بفترة طويلة ، يصل الطفل »
« إلى مرحلة يتخيل فيها شعور الآخرين طبقا لما يشعر »
« به في ذات نفسه ... »

كذلك ينقل لنا عن عالم آخر هذه الفقرة :

« إن الامتزاج بين الشعور بالآخرين والشعور بالذات »
« في نفس الفرد ، يستمر طوال الحياة .. وإننا نعدل »
« أفعالنا بناء على تلك الفكرة التي نكونها لأنفسنا »
« عن آراء الآخرين فينا .. »
« فشعورنا الذاتي ، يشبه مرآة تنعكس فيها صور »
الآخرين .. »

---

(١) كتاب « اتجاهات الفلسفة المعاصرة » .

فإذا كانت صلة الفرد بالجماعة تأخذ هذا الترابط الوثيق ٠٠، فإن صلة الجماعة بجماعة أخرى تقوم على نَسَق مُماثل ٠

أى أن المجتمع — أى مجتمع — ليس دائرة مغلقة ، ولكنه موجة فى تيار ٠٠ وكل جماعة من البشر فى زمان ما ، ومكان ما ٠٠ إنما يتلقون من التيار البشرى كله تأثيرا مماثلا لهذا الذى يتلقاه الفرد من الجماعة ٠

من أجل هذا آثرنا ألا نقول مع علم الاجتماع إن لكل فرد « تركيباً اجتماعيا » وقلنا : إن لكل فرد « تركيبا إنسانيا » ٠٠

وحين أكون كفرد ، مركبا هذا التركيب الإنسانى ، وأحمل ميراث الإنسان الذى هو حقيقتنا الكبرى فإن هذا يكشف عن الخيرية العظيمة التى أحملها بين جنبىّ ٠٠ هذه الخيرية التى يشير إليها الحديث النبوى القائل : « كل مولود يولد على الفطرة » ٠٠ بيد أن فرديتى هذه لا تعنى الانعزال ، ولا الوجود الشخصى ، لأننى تركيب «لاعنصر» ونحن فى الحقيقة ، نتسلم ذواتنا من النوع ، فى ذات الوقت الذى نتسلمها فيه من آبائنا وأمهاتنا ...

أجل ٠٠ إن الآباء والأمهات ، يمنحوننا خصائصنا الشخصية ٠٠ والنوع ، يمنحنا خصائصنا النوعية أو البشرية ...

وفى تكوينك الذاتى ، وأنت نطفة ، أدلى النوع بدلوه ، واقتحم

نسيج البذرة الأولى واستقر فيها . . فإذا ذهبت تعيش فى وجود منفرد : ففى أى وُجُودَيْك ستعيش .. ؟؟

وجودك الشخصى . ، أم وجودك الـكلى . . ؟ ؟

إنه قد يبدولك أنك تحيا فى وجود حقيقى حين تجنح إلى فرديتك ، وتخرج خبء ذاتك الواحدة . . بيد أنك آنئذ ، لم تزد فى الواقع على أن أحدثت انقساما فى ذاتك ، إذ حاولت أن تجعل مركز الثقل فى أحد شقيها .

أجل . . إنك آنئذ تحاول أن تشق الشعرة نصفين . . !! وإذن ، فـكان كل فرد من الوجود، هو الوجود الإنسانى ، لاالوجود الشخصى . . لأن الأول فضلا عن كونه يتضمن الثانى ، فهو — قبلا — مجالنا الحيوى الأوحد .

لا بد أن نصل كل خطوطنا بالإنسان ، ونـكون دوما على استعداد لاستقبال مشيئته والسير معه .

فالخير الإنسانى ، كامن فى النوع الإنسانى ، وكلما وثّق الفرد به وشائجه ، ازداد غرْفا منه ، وانتفاعاً به . .

ليس معنى هذا أننا نقول للفرد . ، لـكى تُكوِّن نفسك ، امتنع عن أن تَـكُون نفسك .

إنما نقول له : امتنع عن أن تَـكُون بعض نفسك واحذر أن تنشق على ذاتك ..

إن فى تكوينك « خلايا » ورثتها لك البشرية كلها ، وهى تأخذ بك دائماً إلى موكبها .

وتجربتك التى تبدو لك فردية .. هى مع هذا اجتماعية ، لأن المجتمع أسهم فى صنع ظروفها .. ، وإنسانية ، لأن طبيعتك التى مارستها تحمل أقباساً من التراث الإنسانى جميعه .

ولندرك جيداً ، أنه فى الوقت الذى نحاول فيه الروق من المضمون الإنسانى العام ، أملا فى العثور على أنفسنا ، نفقد أنفسنا .

إن حياة الجنين وأطوارها فى الرحم تؤكد أن كل فرد يحمل الطابع الإنسانى كله مركزاً ، أروع تركيز .

فإذا كان الإنسان يكرر تطوره البيولوجى فى كل فرد على النحو الذى سبق ذكره ، فإنه أيضاً يُحَمِّل كل فرد تراثه ، ويفرغ فيه طبيعته ، ويجذبه إليه بأوثق العرى حتى لا يكون شاة قاصية تتخطفها الذئاب ، وحتى لا يلدغه القلق الوجودى ، ولا يرفع راية التسليم أمام مشكلة العدم ، وحتى لا يعجز ولا يَنثنى ...!!

الوجود الإنسانى إذن ، هو عالمنا الأمثل والحق . وبه يكون الإنسان سيد وجوده . وهــذا الوجود لا يخلق نفسه ، بل نخلقه . ولا يجرى رُخاء ، بل نعانيه . بيد أنها معاناة البناء الظافر الذى يرفعه طبقاً فوق طبق . لا معاناة الـ[illegible] [illegible]اوى أنقاض [illegible] فوق رأسه .

وفى الوجود الإنسانى الذى يشمل الحقيقة الخارجية كلها ، لاتجبهنا خيبة الرجاء فى بحثنا عن الوجود لأن فرص تحقيقه وافرة وباهرة .

وأيضاً ، لا نخشى العدم ، لأن القضية هنا ليست قضية فرد منفصل عن حقيقته . بل قضية الإنسان فى دوره العظيم الذى لا منتهى له .

إن الانكباب على الوجود الفردى ، عزل للجهد البشرى ، واحتباس له فى قوقعة معتمة . بينما الحياة داخل وجود إنسانى تزكو الفرد ، وتملأ يديه بقدرة لا حدود لها . وبه وحده يكون الإنسان سيد وجوده .

× ×

والآن ، ما معنى أن يكون سيد تاريخه . . ؟

إن المفهوم التقليدى للتاريخ قد ولّى مدبراً .. ولم يعد التاريخ مجرد سجل للأخبار ، والبطولات ، والجرائم . . كما لم يعد ذلك المسرحَ القديم لمناورات السياسة وغزواتها :

إن التاريخ بمفهومه الصحيح ، هو الحركة الإنسانية والنشاط الإنسانى قاطبة . . هو الوعى الإنسانى فى حركته الدائبة .

وقوانين هذه الحركة تقع تحت سيطرة الإنسان وليس العكس . .

وكل مرحلة تاريخية تأخذ مكانها خلال العمل الإنسانى هى مخلوقة

للإنسان ، وليست خالقة .

والحركة التاريخية، ليست أكثر من مظهر زمني للحركة الإنسانية .

والحدث التاريخي ، لا تنجبه الضرورات التاريخية ، بل الضرورات الإنسانية . . لأن الإنسان هو القانون الثابت الذي يجعل التاريخ عملا واعياً وهادفا .

ومن ثمّ فالإنسان لا يخضع لأية حتمية تاريخية إلا إذا اعتبرنا التاريخ قدَراً إنسانياً ، يصوغه الإنسان نفسه ، ثم يرتبط به عن طريق قوانينه التي يلتزمها ، ويحترمها . . أما دون هذا ، فالتاريخ كعمل إنساني ، هو الذي يخضع لحتميات إنسانية تقتضيها طبيعة الوجود الإنساني ، ووظيفته .

وإذن فالتاريخ عندنا — لا يمثل التطور التدريجي لفكرة الحرية كما يرى « هيجل » . . .

ولا يمثـــل التطور التدريجي لعلاقات الإنتاج . . كما يرى « ماركس » . .

وإنما يمثل التطور التدريجي لظهور الإنسان . .

فالإنسان يُخرج خبئه ، ويحقق ذاته ، ويسير عبر الزمن بآماله وأعماله لينجز أغراض وجوده التي إن كان لها ، منتهى فهو بعيد . جدّ بعيد .

وهذه الرحلة الكادحة الداهمة التي يقطعها خطوة خطوة .

هذه الرحلة بكل علاقاتها ، وعللها ، ونتائجها ، وحركتها ، وإصرارها هى التاريخ . .

والتاريخ إذن ، ليس قدَراً طارئاً ومفروضاً على الإنسان . وليس حتمية غيبية تتحكم فيه بل هو وعيه المدروس ، وعمله المحْكَم ، وحركته المنظورة .

يقول ماركس وانجلز فى مُؤَلَّفهما « الأسرة المقدسة » .[1]

« يقول المثاليون صنَع التاريخ كذا . . وسوف يحكم »
« التاريخ بأن . . والتاريخ لا يرضى بكذا .. »
« على حين أن التاريخ لا يصنع شيئاً ، ولا يريد شيئاً ، »
« وهو يرضى بكل شىء .. وعلى حين أن الإنسان هو »
« الذى يصنع ، ويحيا ، ويريد ، ويناضل . . . »
« والتاريخ لا يستخدم الناس لغاياته الخاصة . . . »
« والتاريخ لا يعدو أن يكون الإنسان الذى يتابع أهدافه »
« وغاياته . . . »

هذه كلمات فاصلة فيما نحن بسبيله ، وكل شرح لها فضول وتكرار .

وإن تحرير الوعى الإنسانى من الحتمية التاريخية ، وتحريره من الحتميات جميعاً ، لَيُشكل ضرورة قصوى .

---

(١) كتاب « كارل ماركس » تأليف لوفافر

وكلما وضعنا فى اعتبارنا ، أن الإنسان وحده — فى أرضنا هذه — هو القِيمة .. وكل ما عداه مما نعتبره قيما ، ليس أكثر من تعبيرات ملائمة تعكس حقيقة الإنسان ، وجوهره .

أقول كلما وضعنا هذا فى الاعتبار ، ربحنا الإنسان ، وربحنا أنفسنا ، وأفرغنا فى دورنا حظاً أكبر من الفهم ومن الذكاء ..

قد أبدو مبالغاً فى تمجيد الإنسان .. ولكنى لن أكون مبالغاً فى تصورى لحقوق سيادته .. هذه الحقوق التى كلما ازداد ممارسة لها ، ازدادت سيطرته على بيئته ، وفقدت الظروف الموضوعية قدرتها على التحكم فيه ، وفى تاريخه ..

وحقوق السيادة هذه ، تقتضى أول ما تقتضى أن يتبوأ الانسان المكان الأول والأعلى بين شتى الظروف المشتبكة ، والتناقضات المتداخلة .، وأن يكون زمام المبادأة فى يده دوما ، وفى غير تحفظ أو شروط .

وهذا ليس أمراً نمنّه عليه ، ولا تبرّعاً نسقطه فى كفه .. بل هو حقه الطبيعى الصميمى ، الذى لا يشكل عرضاً من أعراضه .. بل جزءاً من صميم جوهره ، وصميم ذاته ..

يجب أن يعلو دائما ويسود ، ذلك المبدأ القائل « لقد خُلِق السبت من أجل الإنسان .. ولم يخلق الإنسان من أجل السبت » ..

فكل أشياء حياتنا الأنسانية .. وكل القوانين الاجتماعية ، والظروف التاريخية ، كل هذه جعلت للانسان ، ولم يجعل الانسان لها ..

وإذن ، فلا ينبغي أن يضحي من حقوقه ولا من حريته ، ولا من سيادته بشيء لها ..

***

هكذا نتصور سيادة الإنسان على وجوده ، وسيادته على تاريخه .

ومن خلال سيادته هذه ، نبصره وهو يشيد حضارته ، ويؤسس عالمه .

فالإنسان كما قلنا ، هو مادة حضارته ..

ليست الأفراد ، وليست الجماعات إلا بمعنى أنهم مجلى ظهور الانسان ومركز وجوده ..

لقد قامت حضارات كثيرة أسميناها بمناطق نشاطها ..

حضارة الاغريق ، والرومان ، وأشور ، والفرس ، والعرب ، والفراعنة . . .

ونقول اليوم : إنها بادت .. وإنها لكذلك فعلا ، لو كانت من عمل طوائف وجماعات ..

أما الحقيقة ، فهى أنها لم تَبِدْ ولم تفن .. ولكنها تحولت ونمت ، وتطورت ..

ذلك لأنها من عمل الإنسان . والإنسان صامد ، ونام ، ومتطور ومجالى تلك الحضارات جميعاً من عمران ، وكشوف ، وصناعة ، وعلم ، لم يدركها العدم وإنما تطورت وصمدت ..

فتحنيط الموتى وعلوم الفلك ، وفن العمارة فى حضارة الفراعنة .

وكشوف الطب ، والكيمياء ، والطبيعة فى حضارة العرب ..

والفلسفة ، والديمقراطية ، والفن ، فى حضارة الاغريق .

والقانون ، والعمارة . والأدارة ، فى حضارة الرومان .

ومثلها فى حضارة آشور ، والفرس ..

والفلسفة ، وصناعة الورق والبارود فى حضارة الصين ـ كل هذه لم تَمُتْ ، وإنما تطورت . لأنها تسير عبر الإنسان ، وتتطور خلال مصايره الصاعدة .

لقد أعطاه الله طبيعة مُطيعة ، باحت له بأسرارها ، ووضعت نفسها وقوانينها فى خدمته .

بل لقد سخر الله له الشمس والقمر والنجوم مُسَخراتٍ لأمره ..

ولهذا ، فهو — أى الانسان — أحكم وأفطن من أن تضطرب

الأمور فى يده .. أو تتهاوى عمارته وحضارته

إنه لا يعمل بقوة ساعده . فلو كانت قوة العضلات هى الفيصل لسبقته الحيوانات المهولة التى هى أشد منه بأساً ، وأوفى قوة .

ولا يعمل بكثرة أعداده .. وإلا لسبقته أيضاً الحيوانات والحشرات.

ولكنَّ بطلَ الحياة هذا .. الذى شق صفوف جميع الكائنات فى كوكبه . ، وانطلق من بينها صاعدا .. راشداً .. ماجدا ..

إنما يعمل بأثمن ما وُهب ، وأفضل ما اعطى ..

أتعرفونه .. ؟؟؟

إنه عقله ، وفكره ..

ألا وإنه لحتم علينا أن نقف معه فى فكره ، لننظر ، ونَفْقَه ، ونعرف .

فلنفعل ذلك الآن ..

الإنسان سيد فكره

حبا الإنسان طويلا على يدى بارئه .. وتلق النفخة الكبرى من روح ربه ، وبزغ عقله ووعيه ، فأعلن الله رُشده ، إذ رآه يتقبل فى شجاعة وغبطة ، الأمانة التى عُرضت من قبل على السموات والأرض فأبَيْن أن يحملنها ، وأشفقن منها ..

ومن ذلك الحين صار الإنسان سيد كوكبه .. وكتب على نفسه ، أن يحوّل أحاسيسه الغامضة ، ومبهماته الباطنة إلى وعى ، وحركة ، ومستقبل .

كتب على نفسه أن يحول غرائزه الحيوانية إلى حاجات إنسانية ..

كتب على نفسه أن يحول أسرار الطبيعة المضمرة إلى عالم يكتشفه ويشيده .

وامتلك — على حد تعبير هيجل — عريزة خلق ذاته .. ومند وَعَى نفسه ، شغله أمران ، كان لابد أن يشغلاه .

أولهما : معرفة حقيقة جوهره ومصيره .

وثانيهما : السيطرة على العالم الخارجى وتسخيره .

ولقد سبق أن قلنا : إنه عاصر الطبيعة ، ولقَفَ مشاهدها ، بغريزة واستودعها عقله الباطن .. ولما بزغ وعيه ، وانحلت عقدة لسانه بدأ يترجم دخيلته العميقة ، وينقلها ..

بعض تلك التجارب والمشاهد ، استقرت فى أعماقه مبينة مُيَسَّرة ..

فلما أراد أن يستعيدها ظهرت الأداة المناسبة ، وكانت — العلم ..

وبعضها كان مبهما وغامضا ، يحتاج إلى بث الأسئلة الكثيرة ، وتقليب وجوه الاحتمال والنظر . . وظهرت الأداة الملائمة لهذا ، وكانت — الفلسفة . .

وبعضها كان خارقاً ومعجزاً . . وظهرت الأداة الملائمة له — وكانت — الدين .

وعن طريق اللغة ، مضى الفكر الإنسانى يملأ كل هذه المجالات ويغذيها .

وبالدين والفلسفة ، شرع يحاول معرفة جوهره ومصيره ..

وبالعلم ، مضىَ يسيطر على العالم الخارجى كله .

بهذه القُوى إذن — الدين ، والعلم ، والفلسفة وما انبثق منها ، كالفن ، واللغة ، والأدب — يعبر الفكر الإنسانى عن ذاته . . تماماً . . مثل الطاقة فى الطبيعة تعبر عن نفسها بقوى كثيرة كالكهربية ، والمغناطيسية ، والكيماوية ، والحرارة ، والإشعاع .

وكما أن هذه القوى جميعاً ، ليست فى التحليل النهائى لها سوى الطاقة نفسها .. فكذلك القُوَى الفكرية ليست فى تحليلها النهائى سوى الفكر ذاته .

ونحن نعنى بالفكر هنا — التجربة كلها التى عاشها الإنسان عَبْر

تطوره الطويل ، ولا يزال يعيشها بكل ما فيها من لا شعور ، وشعور ، وإدراك ، وإلهام .

* * *

ولكن ، ما معنى أن الإنسان اكتشف الدين . ؟

معناه أنه اهتدى إليه ، ذلك أن اكتشاف شيء — أولا — يعنى سَبْق وجوده .. فاكتشاف الجاذبية ، وحركة الأرض يعني أننا لم نخلقهما ، وإنما اكتشفنا وجودهما ..

ومعنى اكتشاف الإنسان الدين ، اكتشاف حاجات دينية عميقة فى نفسه ، ورثتها وأنجبتها أحاسيسه العارمة المحتشدة خلال تطوره .

وحين نبصر جيداً ، هذه الحاجات ، نرى أن الذين يدعون الوجدان البشرى لنفض يده من الدين على خطأ كبير .

ذلك أن الدين ، ليس هو تلك الطقوس ، والمشاهد ، والشعائر فحسب . . . إن هذه كلها هى الشكل الخارجى للدين .

أما لُباب الدين ، وحقيقته ، فهو التطلع إلى اللانهائى .. أو على حد تعبير « روبرت سبنسر » :

« الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ، ولا المكانية ، هو العنصر الرئيسى فى الدين » ..

والإيمان بهذه القوى .. أو على الأقل ، الرغبة فى التعرف إليها ، شىء لا يتكلفه الإنسان ، وإنما ينبعث تلقائياً من تجربته ونفسه .. والعلم فى كثير من انتصاراته لا يزيد هذا الإيمان ، أو هذه الرغبة إلا تشبثاً .

فهو مثلا — أعنى العلم — يستطيع أن يجمع المواد التى يتكون منها الكائن الحى ، ويؤلف بينها .. ولكنه لايستطيع أن يبعث الحياة فى خلية واحدة .. هكذا يقول علماء البيولوجيا أنفسهم . ! !

وهناك أعداد هائلة من الأسرار العريقة التى تختفى وراء الحركة العارمة للطبيعة ، وللكون ..

ولذا .. فالدين الذى هو تطلع دائب إلى اللانهائى .. والشعور الدينى الذى هو الإحساس بحاجتنا إلى التعرف بهذا اللانهائى . سيظلان على رأس دوافعنا جميعاً ..

ووصفنا الدين بأنه قوة فكرية ، لا ينقص مِن دَوْره شيئا ..

وحتى إذا أخذناه حسب تعريف الفلاسفة الإسلاميين له بأنه « وضع إلهى يرشدنا إلى الحق فى الاعتقادات . وإلى الخير فى السلوك والمعاملات » ..

فليس ثمة بأس فى أن تكون نقطة انطلاق هذا الوضع الدينى هو فكر الإنسان .. وإلا فلماذا اختار الله رسله من الناس أنفسهم . ولم يخترهم من عالم آخر .. ؟ ؟

ثم إن الإيمان بالله — وهو لُبَابُ الدين — يكون أقوم ، وأهدى حين يكتشف الإنسان نفسه حاجته إليه ، لا حين يُملَى ويفرض عليه . .

ولهذا — كما أسلفنا فى الفصل الأول — يترك الله إبراهيم عليه السلام يجدّ فى البحث عن إيمانه . .

يبهره ضياء القمر ؛ فيقول : هذا ربى .

ثم يبهره نور الشمس ؛ فيغادر القمر إليها ، وينادى : هذا ربى . . هذا أكبر . .

ثم ينتهى به تطوافه إلى أن الله لابد أن يكون أعظم من هذا كله . . وحسبه من علمه به ، أنه الذى فطر السموات والأرض . .

وتَطَلُّع إبراهيم هذا ، يشبهه فى الزمن الأول ، تَطَلُّع الرجل البدائى إلى اللانهائى . . وإن كان تطلع إبراهيم عليه السلام يمثل منسوباً من الوعى أسمى وأرشد . .

وهذا يُصَدِّق أن الدين تجربة الإنسان . . لا بمعنى أنه اخترعه ليزجى به فراغا ، أو يقضى به وَطَراً عارضاً .. ولا بمعنى أنه اخترا أول محتال ، التقى بأول مغفل ، كما يقول ڤولتير فى سخرية عابثة ..

ولكنه تجربة الإنسان بمعنى أنه انعكاس إحساسه العميق بخالقه وبارئه ، وحاجته الراسخة الأكيدة لربه العظيم ، كما أنه مَجْلى نشاطه الروحى الزاخر . وهو لهذا سيظل جزءاً من صميمنا ما دام سرّ هذا

الكون مجهولا .. وهو لن يظل مجهولا ، ولا مغلقاً ..

سنواجهه فى يوم مقدور ، بَعُدَ ذلك اليوم أم قَرُب .

أجل — فى يوم لا ريب فيه ، سنُلاقى الحقيقة ونُعانقها ..

سنرى الله جهاراً عَلَنا ..

سنقف وجهاً لوجه أمام القوة العليا المحركة لهذه الأكوان المذهلة .

والدين نفسه ، يقول هذا ، ويتنبأ بحدوثه .. وهذا التنبؤ من أروع آياته .. فهو يؤكد أن الإنسان لن يظلَّ رهين الجهل والتِّيه .. بل إنه سيصل .. سيعرف كل شيء .. سيرى الحق ويواجهه .. وهكذا يفسح أمام الانسان آماد الأمل والعمل

واليوم الذى سيتم فيه هذا ، يسميه القرآن « يوم الفصل » . . حيث تَتَبدَّى الحقيقة فى وضعها الفاصل . .

ويسميه « يوم الجَمْع » . . حيث لاشتات ولا فرقة بل نحن والحق معاً . . وحيث يلتقى الإنسان بالحقيقة التى طال بحثه عنها

ويسميه « يوم الدِّين » .. حيث نؤدى للدِّين تحية الشكر إذْ كان الحافز الذى لا يهدأ وراء تطلعنا إلى اللانهائى العظيم ، وإذْ كان باعث أشواقنا العالية ، ومَخاطرنا السامية فى شوطنا الطويل . .

* * *

الدين ، والعلم ، والفلسفة إذن ، قوى اهتدى إليها الإنسان لينقل بها نفسه ، ويبلغ بها غايته وهى مَجْلى فكره الثاقب النامى . .

وكلمة « فكر » تبدو ، وفيها من السيادة مايجمل وضع كلمة «حر» إلى جوارها فضولا ولغواً . .

فليس للفكر سوى حالة واحدة يتأكد فيها وجوده ، تلك هى حالة التحرر المطلق من شتى القيود.

أى أن ليس ثمة فكر حر ، وفكر غير حر . .

هناك فكر . . أو ، لا فكر على الإطلاق

ولكن للفكر أيضاً تناقضاته التى يتخذ خلالها طريقه ، ويمارس وظيفته . . ولقد جهل الناس دور هذه التناقضات دهرا طويلا فاشتجر بينهم الخلاف والنزاع . ولم يكن الذى حدث ولا يزال يحدث من خصومة بين كل من الدين والعلم والفلسفة — أو بتعبير أصح ، بين رجال الدين ورجال العلم ، ورجال الفلسفة — إلا مظهرا للجهل بعمل تلك التناقضات وحكمتها ، ومظهراً للجهل بنشوء هذا التنوع فى المعرفة البشرية . .

لقد تعودنا أن ندرس الفكر الأنسانى فى « قطاعات رأسية » . فنقول : الفلسفة ، والعلم ، والرياضة ، والفن ، والأدب ؛ والاقتصاد ، والاجتماع . . الخ .. ولكن ، حين نأخذ هذه المعارف جميعا ، ككل ، متمثل فى الفكر الإنسانى ، كما هو واقع فعلا ، فان هذه النظرة كفيلة

يحملنا على احترام كافة القوى الفكريه التى يعبر بها الفكر عن نفسه .

إن الدين ، والعلم ، والفلسفة ، وما ينطوى تحتها جميعاً من علوم منبثقة منها — كالأدب ، والتصوف ، والرياضة ، وعلوم النفس ، والكيمياء والحياة ، والاقتصاد ، والاجتماع الخ .. هذه كلها مملكة العقل الرشيدة ؛ التى لاتعرف الضغن ، ولا ينبغى لها أن تعرفه .

والدين ، والعلم ، والفلسفة ، هى مجلى ظهور الفكر الإنسانى ، ومجال حركته . ولقد بثّ نفسه فيها جميعاً لينمى عن طريقها تجربته ، وليحقق عن طريقها ذاته .. ففيم الخلاف إذن ..؟؟

كثيراً ما نرى المؤمنين بالعلم ، وبالفلسفة ، يخافون على التقدم الإنسانى من الدين . . !!

ومأتى هذه المخاوف — فى رأينا — أنهم يجهلون مكان الدين من الفكر .. ويظنونه « دولة داخل دولة » أو قوة غريبة مجهولة اقتحمت حياة الإنسان . .

بيد أن الفكر ثاو فى قلب الدين ، والتطور الهائل الملحوظ الذى يحدث للتفكير الدينى ويجدّد مفاهيمه ، دليل على وجود الفكر هناك ..

ومن هنا ، لن يكون الدين أبدا ، خطرا على التقدم لأن الذى يصوغ للتقدم منهجه ، ويرسم له خطاه ، هو نفسه ، الذى يكيّف الاتجاه الدينى ، ويمسك بزمامه ، ألا وهو الفكر . .

وأيضا . كثيراً ما نرى المؤمنين بالدين يخافون العلم ، والفلسفه على الدين ، ويخشون منهما على تقدمنا الروحى والأخلاق ..

فلو علموا ثم الآخرون أن الفكر الإنسانى الصاعد ، إنما يتوسل بهما — العلم والفلسفة — لإزجاء تقدمنا كله ودَعْمِ مَسيره . لكانوا أقرب رُحماً إلى العلم ، وإلى الفلسفة ، بل وإلى الحقيقة كلها ..

إنه ما دامت كل هذه القوى مظاهر خارجية للفكر الانسانى ، فلابد من أن نتلقاها جميعا بقدر مُساوٍ من الاحترام .

رجل العلم المؤمن بكشوفه وبقوانينه ، لا يليق به أن يتجهم للإيمان الخالص ، ولا يتنكر للاستشراف الروحى ، لأن العلم نفسه ينفر من من الأحكام النهائية ...وتنقلب المسلمات ، والرياضيات التى بلغت الشأو فى دقتها ، كل يوم تين يديه من حال إلى حال .. وإذن ، فهو لا يستطيع أن يزعم لنفسه حق إصدار حكم نهائى ضد الايمان .

ورجل الفسلفة ، لا تأمره الفلسفة بتحدّى الايمان ، وتجاهله . لأن الفلسفة كلها عبارة عن « كيف .. ولماذا » ..

وإذا جاز للفيلسوف أن يتحرك من وراء هذين السؤالين — أى أن يبحث بحثاً حراً ، غير مقيد بأحكام مسبقة حتى ولو كانت دينية فإن رجل الدين له نفس هذا الحق المشروع . . !

ورجل الدين كذلك . لا يحق له أن يضيق صدراً بنشاط العلم ،

أو يضيق نفساً بجوار الفلسفة . ولا ينبغي له أن تذهب طمأنينته حسرات من ذلك العدو الذي يخشاه دوما . وهو الإنكار أو الإلحاد .

فليس على ظهر الأرض من لا يتمنى من كل نفسه أن يكون هناك إله قادر ، يلجأ إليه في أزماته ، ويطلب عونه ، وينعم برعايته .

ليس على ظهر الأرض فرد واحد ، بينه وبين الله ثأر وعداوة .

كل ما في الأمر . أن الذين لم يهتدوا للإيمان ، وقعوا تحت تأثير الفكر الإنساني في نقطة بعيدة بعض الشيء عن الإيمان .

كما أن المتجهين اتجاهاً دينياً محضاً ، ينأى بهم عن العلم ، وعن الفلسفة . قد أصابهم نفس الأمر . ، فوقعوا تحت تأثير الفكر في نقطة أقرب إلى الدين ، وأبعد عن العلم ، وعن الفلسفة .

وأقرب الناس إلى الكمال والتفوق ، هم أولئك الذين يكونون تحت تأثير متكافىء ، ومتماثل من الفكر الإنساني العظيم .

والفكر الرشيد حقاً ليس هو الذي يقول : « هذا ، ولا شيء معه » .

بل من يقول : « هذا ، إلى أن يظهر خير منه » .

والحق أقول لكم : إنني لا أخاف من الإلحاد على قضية الإيمان أبداً . بل إنه لمن تمام النعمة على الإيمان ، هذا الذي نسميه إلحاداً . ذلك أن الإيمان لو تُرِكَ للطمأنينة ، لذوى ومات

إن جَوَّ المعارك ، كان ولا يزال المناخ الطبيعي لكل ضرورة ، وكل فضيلة ...

ثم إن الدين ، كأى شيء آخر ، قد اكتسى خلال تطوره ومساره بطبقات كثيفة من الخرافات الدخيلة ، والإضافات المتطفلة .. ولم يكن ثمة ما يكشف هذا الدخيل سوى ناقد مثابر ، وخصم لَحُوح .

ألا وإن التخوم الفاصلة بين الدين ، والعلم ، والفلسفة ، لتماع رويداً رويداً .. ويوم يسترد الفكر الإنسانى انبثاثه ، سيختفى آخر مَعْلَم من معالم التفاوت بين هذه القُوى .

ونحن لا نحاول بهذا أن نعقد صلحا بين الدين والعلم والفلسفة .. ففى التحليل النهائى لحقيقة كل منها ، لا خلاف بينها ولا نزاع ..

إنما الخلاف والنزاع بيننا نحن الناس .. بين الصنوف المختلفة والمتباينة لإدراكنا .. ولذا نسوق هذا الحديث لنعيد على ضوئه فهم وتحديد علاقاتنا بالدين وبالعلم وبالفلسفة أولا .. ثم علاقاتنا ببعضنا ثانياً .

× ×

عند ما أذاع الفيلسوف الأثينى « انكساجوراس » أن الشمس كرة من النار ، وليست إلها ، نفاه أهل أثينا خوفاً من أن تَعُمَّهُم الشمس بعذاب .. !!

ومن بعد انكساجوراس مئات المشاهد وآلافها ، شهدت أقواماً من أفذاذ البشر يتعرضون للهوان ، وللعذاب من أجل الصدق .

وفى كثير من تلك الوقائع ، كانت الجماهير هى الوقود الملتهب الذى يحرق العباقرة والأبرار .

أين كان الفكر يومئذ ليحمى رواده . . ؟ ؟

كان غائباً . . .

ذلك أن الفكر إنما يبسط نفوذه عن طريق الثقافة . وفى المجتمع المثقف يكون نفوذ الفكر سامقاً وعظيما ، وبالتالى يرتفع شأن الحقيقة ويتأكد سلطانها ، ويصبح « كبت الحقيقة » خطراً تقاومه الجماعة كلها . .

إن أعظم ما يقدمه الفكر للناس هو أنه يؤمنهم من خوف . . والإنسان لم يستطع أن يسير عبر نفسه ، ويصنع تاريخه إلا بقدر ما كان يقهر مخاوفه ويتحرر منها . . وكان سبيله لهذا ، القوة الفكرية الواعية الداهمة التى كان الفكر يصبها فى قلبه ، وفى ساعده . .

أجل كان الخوف ألد أعدائنا ، ولا يزال . .

ولكن ، ما شأن الفكر بالخوف . . ؟

الصلة واضحة . . فالسبب الحقيقى للخوف ، هو الجهل . . ولقد خفنا الرعد ، والبرق حين كنا نجهل كنههما . .

وخفنا الأرواح ، فعبدناها . .

وخفنا القحط ، وضعف المحاصيل ، فذبحنا أفراداً منا وقدمناهم قرابين .

وخفنا ملوكنا ، فعبدناهم ، وإلى أيام فايلة ، كان شعب كبير يعبد « الميكادو » ابن الشمس . !

كذلك خفنا ، ولا نزال نخاف من الفكر كل جديد .. لأننا كنا نجهل طبيعتنا الصاعدة . ونجهل إرادة التاريخ المعبرة عن إرادة الإنسان فى التطور ، والتغير ، والارتقاء . ونجهل طبائع الأشياء حولنا .

ولكن الفكر الذى اقتحم جميع مناطق شعورنا ، وتجربتنا ، والطبيعة حولنا . ، مضى يذيم نَعْىَ مخاوفنا أولا ، فأولا .

وهذا هو دوره الباسل العظيم .. ومن أجل هذا ، ينظر الفكر إلى كل قوة تحاول الضغط عليه ، وتحديد إقامته ، والتحكم فى اتجاهه . ينظر إليها كنايفة للخوف ، وللجهل . تريد أن تستبقى فى وعينا قدراً من الخوف يمكن لها ، ويعرقل مسعاه فى تحريرنا .

* * *

قلنا : إن الفكر يبسط نفوذه عن طريق الثقافة .. فالثقافة ، هى الانعكاس الشاسع العميم لحركة الفكر كله .

فما الثقافة هذه .. ؟ وما دورها .. ؟ وما واجبنا تجاهها .. ؟؟ إذا شبهنا الفكر بالقلب ؛ فالثقافة هى الشرايين التى يؤدى القلب بها وظيفته .

وإذا شبهناه بالدماغ ، فالثقافة هى الجهاز العصبى الذى يتلقى عن الدماغ ، ويعطيه ..

وكما أن كلا منهما — القلب والدماغ — يعمل طرداً وعكساً ..
فكذلك الفكر مع الثقافة يعمل طرداً وعكساً .. يعطيها ويأخذ منها .
وهكذا يستكمل تقدمه ونماءه ..

من أجل هذا ، يصير كل إضرار بالثقافة إضراراً بالفكر نفسه .
وكل إعنات معها ، يصيب الفكر بالأذى الذى لن يكفه قطعا عن أداء
دوره .. ولكنه يعرقله ويعتاقه .

والفكر غالب على أمره .. وسرعان ما يكتسح كل عقبات طريقه .
ويذهب صاعدا .. لكن الذين يحل بهم السوء الطويل حقاً ، هم الناس
الذين يتخلفون عن الفكر بتحديهم له ، ويقطعون ما يجب أن يبقى
موصولا بينهم وبينه من وشائج وأسباب

حيث تكون الثقافة ، يكون الفكر ..

وحيث توجد الثقافة رفيعة شاملة ، يوجد الفكر رفيعاً شاملا .

والفكر الإنسانى ، لا ينسى أبدا وظيفته الرئيسية .. وهى تحويل
الجهالة إلى معرفة .. والمخاوف إلى جرأة ، والعشوائية إلى منطق ..
والسذاجة إلى وعى مكتمل .. وبعبارة واحدة . تحويل الدهماء إلى صفوة .

أجل .. هذا هو الدور الحق للفكر وللثقافة .. تحويل جميع
غرائزنا ، ومشاعرنا وطبيعتنا إلى طاقة مفكرة ، ورفع الأعداد الهائلة
من البشر إلى مستوى الصفوة ..

كان الفن للصفوة . . وكان العلم للصفوة . . كما كانت الحياة كلها بكافة مناعمها ومباهجها للصفوة . . ولكن الفكر فى رحلته كان ينادى الكافة ، ويعنى بمصيرها . وكثيراً ما كان يترك القصور الشاهقة الناعمة الباذخة ، ويسرع خطاه نحو كهف أو كوخ متعب ، تسكنه أسرة متعبة ، فيلقى بكلمة السرّ إلى طفل شاحب جائع عريان . . فيمضى على غير نهج أترابه ، وبعد حين قريب يتكشف عن عبقرى عظيم ..

إن الفكر بهذا كشف عما فى صفوف الكافّة من استعداد ، وأبطل حجة الصفوة فى استبقاء الفن والعلم والحياة لها .. وكشف كذلك عن غايات رسالته وعمله .. وعلّم الثقافة دورها ، وعلّمنا واجبنا تجاهها ..

* * *

وللثقافة نقطتا بدء ، لكى تؤدى عملها كاملا غير منقوص ..

(١) الجماهير الإنسانية ..

(٢) الطبيعة الإنسانية ..

إن الجماهير الإنسانية ، هى المجلى الحقيقى لظهور الإنسان .. الإنسان الذى يعمل داخلها ، دافعاً نفسه ودافعاً إياها معه إلى الكمال الميسور .

ولقد ذهبت عصور الامتيازات ، ولن تعود .. ومن اليوم بل ومن الأمس ، شرعت الجماهير تمسك بأزمّة حياتها .

ونقل الثقافه للكافّة ، على رأس واجبات عصرنا والتزاماته تجاه نفسه ، وتجاه الأجيال .

أجل ، وأن التربية لهى الطابع المميز للبشرية الجديدة التى طلع عصرها ، وأهلّت أيامها . . وهى — أعنى — التربية تتهيأ لتأخذ مكان أشياء كثيرة ، طالما اعتُمد عليها فى تقويم الناس .

وخير طريق نسلكه لدفع التقدم الإنسانى ، هو أن نضع وصية سقراط موضع التنفيذ الناجز ، تلك الوصية التى تدعونا بأن « نعلم أكثر مما نُحرِّم » . .

لقد سار الإنسان طويلا بقوة العقيدة ، وسار طويلا بقوة التقاليد والعادة . . وسيسير طويلا بقوة الثقافة . .

ليس معنى هذا أنه سيتخلى عن العقيدة ، وينبذ صالح العادات . بل معناه أن الثقافة هى التى ستنسق ، بل بدأت بالفعل تنسق مجموعة المعتقدات والعادات . وهذا يكشف عن ضرورة تعميم الثقافة . . .

إنه ليس بوسع الناس أن يقفوا عند تقاليد انتهى دورها . . . وإن الجهل ليُزيِّن لهم الوقوف حتى تأتيهم قوة تنقلهم . .

وإذا كانت حركة التاريخ هى تلك القوة التى يصطنعها الإنسان لهذا ، فإن خير ما تعتمد عليه حركة التاريخ هذه ، هى الثقافة .

فى الأزمان القديمة ، كانت الأسطورة تُكافَح بأسطورة مثلها . .

ولـكن الانسان اكتشف أن لهذه الطريقة آفاتها . . فالأسطورة الآفلة لم يكن التغيير يبلغ صميمها .. كان الذى يتغير ، هو شكلها لا طبيعتها .. ومن ثمَّ أعطى الثقافة كل ثقة ، وصار يعتمد عليها فى صوغ آرائه ، وعاداته ، ونُظمه .

وكما انتهت عصور المُسلَّمات ، والأحكام النهائية بالنسبة للعلم ، فينبغى أن تنتهى أيضاً بالنسبة الناس ، حتى لا يضلُّوا فى الهوة الفاغرة بين مسلك العلم ، ومسلـكهم .

أعنى أن الجماهير نفسها . يجب أن تتوفر لها فرص التفكير بمنهاج علمى ، وتشحذ ملـكات البحث لديها ، حتى لا يعمل العلم بعيداً عنها ، وحتى لا يتسع مَدَى هذا الانفصال الملحوظ بين العقل والخُلُق .. بين العلم والسلوك . . وهذا يقتضى أن يتوفر لها أكبر حظ من الثقافة

سيقول ناس منا ، ماللجماهير والثقافة .. ؟ ؟ أولئك هم النازعون إلى الارستقراطية ، والامتياز ، والاستعلاء .. !

وأولئك هم الذين ينسون أن جُلَّ العباقرة بزغوا من الـكهوف الخاوية . ومن صفوف الجماهير العريانة البائسة ..

وأولئك هم الذين لايستشرفون — أقل استشراف — مصير الإنسان . .

إن مصير الإنسان ، هو مصير هذه الجموع .. وإن الانسان

ماض إلى قمه السامقات .. ما فى ذلك ريب .. وإذن فالجموع ماضية إلى نفس المصير العظيم . وسيأتى اليوم الذى تعمّم فيه العبقرية والمعجزة .. وإنما* نشيد بأهمية العمل من أجل تعجّل هذا اليوم ، وذلك بالقيام بكل تبعاته .. وأولها نقل الثقافة للكافّة ..

سيقولون : أيّانَ للجماهير أن تمتلك الثقافة ، وهى التى تقودها غريزة القطيع .. وهى التى نرى أهواءها تتجه بها صَوْبَ كل تافه من الأمور وغَثّ .. ؟ ؟

أجل إن غريزة القطيع تقود الجماعات .. ولكن أليست غرائز الحيوان تعمل عملها فى الفرد العبقرى ذاته . . ؟ ؟ ؟

إن مصير هذه الغرائز معروف فى مستقبل الإنسان . إنها جميعاً ، فى الفرد وفى الجماعة ، ستتحول إلى قوًى إنسانية محضة عالية .

أما اتجاه أهوائها إلى كل تافه وغث . . فلأن فرص الثقافة بعيدة منها كل البعد .

إن الجماهير تُؤْثِر — حقاً — وسائل التسلية ، والترفيه على معاناة المعرفة ، ومُدارسة الثقافة .. ولكن مسئوليتها عن هذا ليست إلا جزءاً من مائة جزء ، من مسئولية قادتها وحكامها ..

كما أنها أيضاً مسئولية الاستعمار الذى عاث فى الأرض فسادا ، والذى يعتمد فى دعم سلطانه على غفلة الجماهير ويُشجع دوما إقبالها على التسلية ، وعلى اللهو واللعب ويخاف والفراغ ، والمعرفة .. وهولهذا

يحشد أوقات الناس بما ينسيهم ما يُريد هو أن ينسوه ، وبما يصرفهم مما يريد هو أن ينصرفوا عنه . .

لكن ذلك لن يدوم .. لأن الجماعة الإنسانية كما أسلفنا تسير فى طريق صاعد .. وركونها إلى المتعة الصارفة عن التفكير وعن المعرفة أمر مضاد لطبيعة تطورها .. بل هو أمر كفيل بالقضاء على جُهودها فكأىٍّ من حضارة ، ومن امبراطورية ، قضى عليها إيثار المتعة على المعرفة . .

ولقد انتفع الإنسان بهذه التجربة ، ولن يسمح بالانتكاس إليها . يقول جلبرت هايت[1] :

« عندما غزا اليابانيون الصين ، عُنُوا بتجارة الأفيون ، »
« فأباحوها ، وشجعوها فى جميع المناطق المحتلة .. »
« واتخذ الألمان ـ الفودكا ـ وسيلة كهذه الوسيلة فى بولندة . »
« أما ـ شادو ـ الحاكم بأمره فى كوبا فكان خلال »
« حكمه يعلن عن عرض أفلام خليعة فى مسارح هافانا »
« كلما توقعت شرطته السرية ثورة أو احتجاجا .. »
« وهكذا تستطيع أن تفسد أكثرية شعب إذا وفرت »
« لها توفيراً لا ينقطع ملذات تُبلد عقلها . . . !! »

---

(١) كتاب « جبروت العقل »

هذه الأمثلة تبين لنا بعض العوامل التى تحول بين الجماهير والثقافة .. والتى تعمل جاهدة لِتُبلِّد عقلها ، وتضالل تفكيرها . وليس من العدل إذن أن نحاسب الجموع عليها حساباً يُفْضى إلى حرمانها المطلق من أقدس حقوقها ..

إن الثقافة ليست امتيازاً .. إنها حق الجميع . وليس من الخيال أن نطمع فى جماعة إنسانية تنتظم ألفى مليون نفس أو تزيد ، ثم تُحْرز كلها من الثقافة ومن النبوغ ما يحرزه الأفذاذ من بعض أفرادها ..

أجل ليس هذا من الخيال ، بل هو من التبعة التى تشكل جزءاً هاما وصادقا من أمانة الحياة التى تقبلناها واثقين .

× ×

على أن هذا الارتياب فى الجماهير ، يمثل بدوره سبباً من أهم أسباب الإذعان لحقها فى نقل الثقافة إليها .

ذلك أن هذا الشك ينعكس على القِيَم الكبيرة فيفسد علينا الأدراك السديد لها .

ونضرب لهذا مثلا — الديمقراطية ...

من كان يصدق أن فلاسفة الحرية فى العصور الخالية يقولون كلاماً

ينعت الديمقراطية بأنها خُرافة .. لا لشيء إلا لارتيابهم فى قدرة الجماهير على تطبيقها .. ؟؟

لقد حدث هذا ، والذين بشّروا بالديمقراطية عادوا من أمرها يائسين .

فبعضهم يراها « أثراً من آثار الولاء القَبَلى للحرب » .. !!

وبعضهم يصفها بأنها « حكومة الذين لا يحكمون » ..

بل رووا عن « روسّو » معلن حقوق الإنسان هذه العبارة المرجفة : « الديمقراطية الصحيحة ، لم توجد قط . ولن تُوجد أبدا » !!

وحكَوْا عن كارليل قوله : « الديمقراطية بطبيعتها شيء يُلغى نفسه بنفسه . ويؤدى فى نهاية الحساب إلى نتيجة هى : صفر صحيح » .. !!

و« ڤولتير » — الذى لا تُذكر الحرية إلا مقروناً بها اسمه يقول هو الآخر : « إننا فى النظام الملكى لا نحتاج إلا أن نعلم رجلا واحداً .. أما فى الديمقراطية فينبغى أن نعلم الملايين الذين يختطفهم الموت قبل أن نعلم عشرة فى المائة منهم » .. !!

هل سأل أولئك الأفذاذ أنفسهم ، لماذا أخفقت ، أو لماذا تخفق الجماهير فى استخدام الديمقراطية .. ؟

إنها أخفقت لأنها لم يكن لها من الأمر شيء .

ولم يكن لها من الأمر شيء لأنها تخاف ..

وهى تخاف ، لأنها تجهل .. ومن ثمّ يسلس قيادها لكل مغامر .

وإن هذا المثل الذى ضربناه ، ليُرينا كيف ينعكس الشك فى الجماعات على تفكيرنا ، وعلى قيمنا .. ويُرينا بالتالى ضرورة تغيير نهجنا فى صياغة الأحكام التى نطلقها جُزافا على الجماهير والجموع .

إن جماهير ـ أثينا ـ التى صفقت لقضاتها وهى تحكم بالموت على سقراط وجماهير ـ أورشليم ـ التى هلّلت لمشهد المسيح وهو يُقاد إلى التعذيب وجماهير ـ فلورنسا ـ وهى ترجم بالحجارة منقذها الأمين سافونا رولا ..

وجماهير ـ روما ـ التى غشيها الحُبور وهى تشهد حرق برونو .. والجماهير التى سارت وراء المغامرين إلى حتفها فى حروب تلو حروب ..

كل هذه الجماهير ، لم يكن ينقصها لكى تقف الموقف الراشد القويم سوى الثقافة والمعرفة .. ولو أنها كانت تعرف ، وتفكر ، وتفطن ، إذن لكان لها من أمرها يُسرٌ ، ولبلَغت من أمرها رُشدا ..

⌘ ⌘

إن الجماهير البشرية ، هى مَجْلَى الإنسان ، ومستقر حركة وعيه ونشاطه .. والإنسان فى كيانه الحق ـ فكر .. والجماعة فى كيانها الحق ثقافة ومعرفة ..

وكل تطور لنا إلى أفضل ، رهين بما يتوافر لنا من فرص الثقافة والعلم .

ليست مزية العلم أنه يسخر لنا الطبيعة وحسب .. بل إنه والثقافة بصفة خاصة ينميان علاقاتنا بأنفسنا ، وبالطبيعة ، وبالحياة ، وبالكون كله ..

فعشرات اللايين منا — نحن البشر — يستعملون « التليفون » ثم لا يعرفون ما هو ؟ ولا لماذا يتم الاتصال هكذا بين الأبعاد ..

وعشرات اللايين يُصغون للراديو نهارهم ومُمْساهم ، دون أن يعرفوا كُنْه المشيئة الحانية التى سخّرت لنا هذا العمل العظيم ..

ليس معنى هذا أنه ينبغى للناس أن يتحولوا جميعا إلى فنيين فى صناعات التليفون ، والراديو ، والكهربا .. وإنما معناه أنه ينبغى لهم أن يدركوا جميعا مَأْتَى العلاقة الهائلة التى تربطنا بالكون ، وبالأشياء كلها ..

فالعلم بكشوفه ، يغمرنا بالصداقات النافعة ، وفى كل اكتشاف جديد ، يقدم لنا صداقة جديدة . مع الهواء .. مع السماء .. مع الكواكب .. مع البحار .. مع كل شىء فى كون الله الرحيب..

وتعميم الإحساس بهذه الصّداقات بين الجموع الانسانية أمر ضرورى لكى تظفر بالمزيد من الطمأنينة ، ومن الذكاء ، ومن

الأمل .. ولا شيء يمنحها هذا الإحساس سوى الثقافة .

كان « جورج وشنطن كارفر » العالم الزنجى الأمريكى ينحنى فوق النبات فى الحقل ، وفوق العشب فى الكَلَأ ، وفوق نثارات الأشياء المهملة الملقاة على الأرض ، ويحملق فيها بعينين ذكيتين ، ويلثمها بفم شكور ، ويصغى إليها . فإذا سئل :

— ماذا تفعل يا مستر كارفر .. ؟؟

يجيب : إنى أُنصت وأعى ..

وهل تُحدثك هذه الأشياء يا مستر كارفر .. ؟؟

فيجيب :

أجل — إن الله يتحدَّث إلىَّ من خلالها ... !!

هذا هو الرجل الذى استنبط من الفول السودانى وحده قُرابة مائتى مُكتَشَف وصنف ، ما بين طعام ، ولباس ، وشراب . لأنه احترم علاقاته كإنسان بأشياء الطبيعة حتى مهملاتها التى يدوسها الناس ، وحاول صادقا أن يكتشف دور هذه العلاقات .. !!!

إن تطور أفكارنا ونموها ، رهينان إلى أبعد مدى ، بإدراك مفاهيم العلم ، ودَوْر العلاقات التى تتبدَّى لنا خلال كُشوفه العظيمة ، على أن يكون هذا الادراك من نصيب الكافَّة . . وجميع الناس .

وإذا لم يكن يعنينا معرفة التفاصيل الفنية لكشف مّا .. فإنه

يمنينا كثيراً وكثيراً ، أن نعرف القوانين التى وراء هذا الكشف ، ونعرف كل علاقاتنا به ، ومصيرنا معه ..

إن هذا المعرفة ضرورية .. ولنضرب لهذا مثلاً .

لعله لم يحدث فى التاريخ الانسانى إجماع على مقاومة الحرب مثلما يحدث اليوم ..

فلمـاذا .. ؟ ؟

. ربما لأن خسائر البشرية فى الحربين العالميتين السالفتين نذيراً رهيباً ..

ولـكن قبل هذا ، وفوق هذا .. اكتشاف الطاقة الذرية

واكتشاف هذه الطاقة ليس هو الذى ألهم الجماهير هذا الاجماع ضد الحرب فأكثر من خمس وتسعين فى المائة من سكان الأرض لا يعرفون عن صناعة الذرة شيئا ـ أى شىء ـ وإنما اكتشاف العلاقة بيننا نحن البشر ، وبين هذا الطاقة الهائلة ، هو الباعث والسبب ...

لقد أتيح للرأى العام العالمى أن يعرف حقيقة .دور الطاقا الذرية فى الحرب . . .

إنها الأبادة الشاملة ، والدمار المطلق ..

وهنا حفز هذا الإدراك جميع الناس لدرء الحرب ..

كما أتيح للرأى العام العالمى أن يعرف حقيقة دور الطاقة

الذرية فى السِّلْم ..

إنه الرخاء العميم الذى يجعل الأرض فى بضع سنوات فردوسا ما مثله فردوس .

وهنا انبعث الناس جميعا يجلجلون بدعوة السلام ..

ولئن كانت حضارات كثيرة قد تقوضت فيما سبق من عصور بين يدى الانسان ، فلأنه لم يكن قد عرف بعد ، قيمة وحتمية إدراكه لعلاقاته بالأشياء ، ولم يكن نوعه البشرى قد تهيأ بعد لأداء حقوق تلك العلاقات ..

أما اليوم ، فقد أدرك الانسان ، وصار الناس أكثر استعدادا لفهم العلاقات وتحمل تبعاتها وسيصيرون غدا ، وبعد غد ، ودائما أكثر فهما وأكثر استعدادا ..

ولن تهب الرياح التى تنبأ بها الشاعر « اليوت » والتى ستجىء حسب نبوءته لتكنس بقايا البشرية المنتحرة الفانية ، والتى ستعوى قائلة :

« هنا . عاش قوم كرام لا يؤمنون بإله . . »
« وأثرهم الوحيد الباقى هو طريق مُعبَّد بالأسفلت »
« وألف كرة من كُرات الجولف » . . !!!   »

أجل ، لن تهب هذه الرياح . . . ما دامت البشرية قد عرفت ،

وما دامت قد أدخلت فى اعتبارها الأكيد الراسخ ، تعميم الثقافة . . .

× ×

قد يرى بعض السادة أن الثقافة تفقد عظمتها وقيمتها حين تنتقل إلى الكافة وتصير طوع أيديهم ..

وهذا يشبه قولنا : إن الشمس تفقد الكثير من وجاهتها وعظمتها كلما وقعت أشعتها على الأعداد الكثيرة من الناس ، سيما أعداد الدهماء والسوقة . . ! ! أى منطق هذا . . ؟ ؟

إننا لو رأينا رجلا جباراً ، يكتم أنفاس الناس ويكمم أنوفهم ، حتى لا يزحموه فى تنشق الهواء ، أو حتى لا يحدثوا فى الهواء ازمة ! ! ،

لما كان أدعى إلى العجب ، من هؤلاء الذين يخافون على تفوقهم ، أو يخافون على الثقافة نفسها أن تغيض وتفنى ، حين تقترب الكافة منها ، وتغترف . . ! !

فالجماهير ، هى الإنسان فى دوره التاريخى . . هى الإنسان فى حركته النامية . . هى الإنسان فى كينونته الصائرة . . والإنسان ، هى الفكر المريد . . فأى شىء يعنيه حرمان الجموع من الثقافة بأفسح وأرحب مدلولاتها . . ؟ ؟

إن ذلك لا يعنى قتل الإنسان ، فالإنسان لم يوجد لتقتله المحاولات التعسة ، أو تطويه الزوابع الضالة •• وإنما يعنى فقط العمل ضد طبيعة الإنسان ، وعمل كهذا يحمل بذور تفسخه وانحلاله من أول وهلة

***

ولكن أى نوع من الثقافة نقدمه للناس . . ؟؟

هنا نلتقى بنقطة البدء الثانية ، وهى طبيعتنا الإنسانية •• لقد ذكرنا آنفاً ، أن للثقافة نقطتى بدء •• الجماهير الإنسانية ، والطبيعة الإنسانية •• ولقد تحدثنا عن صلة الجماهير بالثقافة ، والآن نتحدث عن صلة الطبيعة الإنسانية بالثقافة أيضاً ••

إن طبيعتنا الإنسانية ، تملك البوصلة التى تحدد وتشير إلى حاجاتنا الثقافية . .

هذه الطبيعة التى لم تخلق بين عشية وضحاها •• وإنما تكونت عبْر ملايين السنين ، وأصبحت تمثل كَوْناً هائلا زاخراً بالرؤى والتجارب ، والإمكانيات ...

إنها هى التى تتجه بنا إلى الفلسفة ، فنتفلسف ، وإلى العلم ، فنكتشف وثقافتنا نحن البشر ، إنما تعمل فى خدمتنا ، وتهيئة وسائل ارتقائنا . . من أجل هذا لا يكون طريقها السوىّ أن تبدأ بالمُثُل العُليا •• هابطة

إلى طبيعتنا .. بل أن تبدأ من طبيعتنا الإنسانية متجهة صوب القيم والمثل .. هذا ، إذا اعتبرنا المثل العليا شيئاً خارجاً عن طبيعتنا ، وهى ليست كذلك فيما نرى ..

وإن حنيننا الفطرى إليها حتى ونحن فى حمأة الرذيلة ، وشوقنا الدائم إليها حتى ونحن فى متاهات الشهوة ، ليشيران إلى أنها أعنى مُثُلَنا العليا ، ليست فى الواقع سوى جزء من طبيعتنا تاه منا فى زحمة الحياة . ولاتفتأ طبيعتنا تعمل جاهدة لاسترداده ، وتجرى بنا وراءه ، كما تجرى الأم الحانية وراء وليدها الغائب

فتوجيه الثقافة ، ووضعها تحت إمرة الوصاية صيانة للعُرف السائد والقيم السائدة عمل غير صالح ، لأن جهة الاختصاص الوحيدة فى توجيه الثقافة ، هى طبيعتنا الإنسانية ممثلة فى الإرادة الكلية الخيِّرة لبنى الانسان .. كما أن الثقافة كقوة واعية ، هى التى تملك تحديد المواقيت التاريخية للمُثُل العليا ، وللفضائل الاجتماعية ...

وإذن فمن الهذر والفضول ، أن يتلمظ ناس بهذا السؤال :

هل تُوجَّه الثقافة ، أم تترك حرة .. ؟ ؟

إذا كان مفهوم التوجيه ، استقصاء حاجاتنا الثقافية دون أى مساس بحرية الكلمة ، وحرية الثقافة ـ فَنِعِمَّا هو .. أما إذا كان مفهومه تحديد الدروب والأزقة التى تمشى فيها الثقافة على استحياء وحذر ، فهنا تصبح

الحاجة ماسة ومُلحّة لأن ندرك رفض الثقافة لكل توجيه دخيل

إن الثقافة حتى حين تنطوى على جرأة يحسبها البعض تمرداً ..
يجب أن تظلّ طليقة ..

وإننا حين نستعرض فترات التمرد الفكرى فى تاريخ البشر ، نجدها نفس الفترات التى تحددت خلالها المصائر العظمى لنا ، واستبانت عندها معالم طريقنا الصاعد .

إن تمرد سقراط ، وكوبرنيكس ، وجاليليو ، ونيوتن ، وابن رشد ، والفارابى ، وطرازهم القويم من الأفذاذ ، كان ضرورة بقدر ما كان فضيلة . . ليس لأنه اكتشف قوانين هامة وهدى إلى فلسفات قيمة فحسب . . بل لأنه قوّض الإيحاء المستمر ، والأملاء الضاغط ، والتقليد الساذج ، وأتاح للعقل الأنسانى أوفر حظ من استقلال الشخصية واستقلال التفكير

إن الالتزام نقيض المعرفة ..

فالالتزام ، توقّف ، وجمود ، بينما المعرفة تطلّع ، وانتقال ، وكشف وحركة مستمرة ..

وإذا كان العلم الذى يزن ويقيس ، ويتوسّل بالمعادلات وبالقوانين ، كثيراً ما يغادر يقيناً إلى ضده .. فهل يكون من العدل والمنطق إذن ، أن يعكف الناس على رأى مّا ، باعتباره الحق المطلق الذى لا ينبغى لهم أن يجاوزوه ..؟؟

وهل ثمة تفسير لتوجيه الثقافة غير هذا .. ؟؟

صحيح أن الإلتزام كان نافعاً .. إذ أنه طالما حفز أصحابه إلى التخصص والتعمق ، واستكناه بواطن الفكرة التى هى موضوع الالتزام ، مما يعطى المعرفة فرصة ومجالا .. ولـكن بعد سيادة العلم .. والعلم بطبيعته يملك رغبة حادة فى التقصى ، ويملك قدرة فائقة على بلوغه .. لم يعد ثمة مكان للالتزام ، ولا مكان لما ينجم عنه من تعصب ، وغرور ، وركود

وهكذا نصل إلى الإجابة السديدة عن السؤال السالف :

ـ أى نوع من الثقافة نقدمه للناس ..

إنها الثقافة كلها ، والمعرفة جميعها ..

فالثقافة كالطب ، لاتعرف الحلال والحرام ..

كما أن جميع أعضاء الانسان فى عين الطب سواء . ليس فيها ما هو عورة .. وما هو غير عورة .. فكذلك موضوعات المعرفة كلها بالنسبة للمعرفة ، ليس فيها ماهو حلال ، وما هو حرام .

فالحظر ـ أياً كان لونه ـ لاسلطان له على الفكر ، ولا ينبغى أن يكون له سلطان على الثقافة الموضوعية الأصيلة .

ولا بد أن نقف هنا لنقرر أن الفكر الإنسانى لاقى من الحظر فى كل العصور ، وفى كل البقاع ما كان كافياً للأجهاز عليه لولا مناعته الفذة وطبيعته الخالدة

وانطلاق الفكر ، وانطلاقنا معه ، رهينان بما نقدمه له من تقدير وولاء وفهم سديد لحقوقه ولِدَوْره ..

أجل ، على المجتمع الانسانى كله أن ينفض يديه ، ويغسلهما من غبار وأوضار المعركة الخاسرة التى حاولها مع الفكر

إن الحظر الأخلاق كثيراً مايجىء ثمرةً فجّة لِلغَلطِ كثير

وسأضرب له مثلا .. الحبّ

الحب على رأس القيم العليا للبشرية . وكلما شحذت البغضاء أنيابها بين السياسات والدول ، بدت حاجتنا إلى الحب أكبر وأكثر .. وأيضاً كلما رفعت الأنانية أعلامها ، ازددنا هتافاً بالحب ، واستنجادا به ..

فما هذا الحب ؟

أنه فى التحليل النهائى لحقيقته ، تعبير حتمى عن طبيعتنا الانسانية ، وهو من حاجاتنا الأساسية التى نشترك فى حتمية الظفر بها ـ أفرادا ، وجماعات ..

والغبطة التى يُفيئها الحب إنما تُمثل فى الحقيقة ، فرح النفس بالعثور على تناسقها ..

ذلك أنه حُبّك إنساناً ما ، أوشيئاً ما ، إنما يمثل حالة تناسق تفتقدها وحين يظفر هذا الحب بتحقيق ذاته ، وتدرك أنت الشىء الذى حببت ، تجيئك الغبطة والراحة . لأن نفسك آنئذ ، تكون قد عثرت على تناسقها المفقود

وهكذا ، فالحب ليس مجرد نزوة .. بل إن كلمة « حب » تكاد تكون

تعبيراً هزيلا عن حقيقة الحب ..

تكاد تصلح للتعبير عن الانفعال الحبى أكثر مما تصلح تعبيرا عن حقيقة الحب نفسها

وقديما قيل ، وإنه لحق : « فاقد الشيء لايعطيه » .. فلا يستطيع أحد أن يهب الآخرين حُبَّه وقلبه ... إلا إذا كان يملك أولا هذا الذى سيبذل منه ويعطى .

ولكن كيف لايملكه ، وقد قلنا إنه ـ أعنى الحب ـ انعكاس لطبيعتنا وحاجة أساسية من حاجاتنا .. ؟؟

أجل ، إن فقدانه ممكن إذا واصلنا رَدْم منابعه فى طبيعتنا .. ولنتحدث بوضوح أكثر .

إننا نرجو من الحب ، أن يجعلنا ـ نحن البشر ـ إخوة متحابين ..

والحب ، ليس جهازاً يُشترى من السوق حيث نبلغ به الغرض العظيم .. ولكنه وظيفة من وظائف طبيعتنا الإنسانية ، وتعبير عنها . ونشاط لها .. أى أنه يبدأ رحلته من طبيعتنا ..

وطبيعتنا تموج بأهواء عدّة . وأرجح هذه الأهواء حتى يومنا هذا ، هو الهوى الجنسى .. لذلك لبث الحب زماناً طويلا لايكاد يعنى شيئاً سوى تعبير عن الهوى الجنسى ، وإشباع له

وعلى الرغم من جهود الديانات ، والفلسفات التى حاولت الارتفاع بمستوى الحب ، فقد كانت الطبيعة الإنسانية من القوة بحيث ظلّت ممسكة

بنقطة انطلاقه .. ولم يكن ذلك عبثاً . بل إن المراحل التي سارها ويسيرها الحب في صحبة غريزة الجنس ، إنما تتمّ لصالحنا ، ولصالح المُثُل العليا التي نهفوا إليها .. ذلك لأن المُثل العليا لا تستطيع أن تخفي عنا طبيعتنا ، والمجتمع الإنساني ـ في واقعه ـ لا يقوم على أساس من مثل عليا منفصلة عن طبيعته .. بل يقوم على أساس من طبيعته الانسانية المتضمنة مُثلها العليا .

ومادام الحب حتى اليوم ، ورغم كل المحاولات المثالية : لا يزال إلى حد كبير مُفعما بالجنس ، معبراً عنه ، فمعنى ذلك بالبداهة أن طبيعتنا الانسانية لا تزال متطلعة إلى هذا المسلك لتحقيق ذاتها ، وأن الحب الجنسي لم ينته بعد عصر سيادته . .

وهذا يدعو إلى أن نتقبل هذا الحب .. بدلا من أن نكافحه ونقاومه مقاومة تطيل أمد بقائه ، وترجيء قدوم حب آخر أسمى وأشمل لن يتأتى له المجيء حتى ينجز الأول عمله ، وينتهي دوره ..

لقد بدأ العلم بالسحر المضحك ، والسذاجة المثيرة وحَجَر الفلاسفة ..

ولقد ظل كذلك آلاف السنين . .

وبدأ التدين — قبل أن يأتي الانسان من ربه هُدًى ـ بعبادة الطوطم ، وعبادة الأشباح ، والأسلاف والخرافات ... ولبث كذلك آلاف السنين ..

ولكن في النهاية تجلّت الحقيقة الناصعة للعلم ، والحقيقة الناصعة للدين .:

إنى أضرب هذا المثل ، لنبصر كيف أن أعظم قواتنا الإنسانية المتمثلة فى الدين وفى العلم ، لم تنج من سنن التطور الطبيعى .. وأنها عاشت بأخطائها حتى نضّتها آخر الأمر عن نفسها وتفوقت عليها ..

كذلك كل نشاطنا الإنسانى ، يعيش بأخطائه حتى يتفوق عليها ..

وكذلك الحب يحيا — الآن — بأخطائه ولسوف يتفوق عليها ..

إننا لكى نحصل على ذهب خالص ، لا نقول للأرض : اعزلى ترابك .. وأخرجى ذهبك .. ! !

وإنما نأخذ من مَظانّ الذهب فى الأرض كل ما هناك .. ترابه ، وخَشَاشه ، ووحله .. ثم نبدأ العمل ، فنستخرج الذهب الخالص ، وننفى الرواسب كلها ..

كذلكم الأمر — إذا أردنا أن نظفر بحب إنسانى يدفىء البشرية المقرورة ، ويرفعها فوق مستوى الضِّغن والعداوة ..

أن ندعَ الحب يزاملنا فى رحلتنا ..

***

كان « أفلاطون » يقول :

« إن أشقّ صداقة يمكن الحصول عليها . هى صداقة المرء لنفسه » ..

ونحن البشر ، كثيراً ما نخاصم طبيعتنا فنثبت عجزنا المؤسف عن أن نكون أصدقاء ومحبين .. وقضية الحب التى ضربناها مثلا ، تكشف عن إحدى تلك الحالات التى نعجز فيها عن أن نكون أصدقاء لأنفسنا ، ولطبيعتنا ..

إن كثرة كثيرة من الناس ، تتطيّر وتثور عندما يُجَلِّى حاجة الحب ، أو يُوضح مشاكل الجنس ، كاتبٌ أو فنان .. ؟ فلماذا ؟ ؟

يقولون : إن الكلمة المطبوعة كاسحة ..

فلتكن كذلك .. ولتكن أكثر من ذلك . فأى بأس .. ؟ إن هذا هو المناخ الوحيد الذى تكوّن الإنسان خلاله ..

لقد تُرِكَ ملايين السنين للعراء ، وللثلوج ، وللخَواء ، وللوحوش ، وللصواعق والأعاصير ، لأن ذلك كله كان أنجع الوسائل لاستكمال كيانه الصامد الصاعد الجبار ..

فلتعش روحه ، وإرادته ، وأخلاقه فى نفس المُناخ .. وخير العواقب فى انتظاره .. وكما انتصر جسده ، ستنتصر رُوحه .

على أن فى سلوك الناس تجاه الكاتب أو الفنان الذى يجعل الحب والجنس موضوع قلمه أو ريشته .

أقول : فى سلوك الناس هذا ، ما يثير الريبة ، وما يدل على أن وراء مسلكهم هذا سوء تقدير للأدب وللفن ، وسوء فهم لوظيفتهما . .

برهان ذلك ، أنهم لا يضيقون صدرا ، ولا يأسفون أبدا ، ولا يخافون على أنفسهم ولا على أبنائهم وبناتهم من كلمة العلم فى الحب وفى الجنس ..

مهما يقل العلم ، ومهما يُفِض فى الحديث عن جوهر الحب ودوافعه ، ومهما يُفِض فى الحديث عن الجنس ، وعن طبيعته ، واحتياجاته ، وانحرافاته ، ووظائفه العضوية والنفسية ... لا يخافون حديثه ، ولا يتطيرون منه ..

فلماذا يخافون ويتطيرون من الكاتب ، ومن الفنان .. ؟؟ إن الأدب والفن ، يؤديان نفس العمل الذى أداه العلم .. ولكن بأسلوبهما وطريقتهما ..

إن مهمة العلم أن يكتشف الخصائص الذاتية للشىء ..

أما الأدب مثلا ، فمهمته أن يصور الشىء فى كل واقعه ، وفى كل علاقاته ، ثم يستشرف الغايات البعيدة ، والتطور الممكن لهذا الواقع ..

فيمَّ نخاف ونُحاذر .. ؟؟

إن حياتنا تقترب من كمالها كلما أخذنا بناصية الوضوح .

ولقد عشنا زمنا طويلا نقتات بالظنون وبالهواجس ، وبالخرافات .. وطالما صُغنا حياتنا وسلوكنا وَفق أوهام ما كان أبعدها عن الحقيقة .

وإن الإنسان لهو القيمة الوحيدة فى عالمه . وعلينا أن ندرك هذا جيدا .

وما الصدق ، والخير ، والجمال ، والحب ، وكل هذه المعالى سوى تعبيرات ملائمة تعكس طبيعته العظيمة ، وتنعكس عليها مشارف مستقبله الواعد الجليل ..

وإذن ، فلا مكان للحظر الأخلاقى فى فكره ، ولا فى ثقافته .. فالعمل الأخلاقى للثقافة إنا يبدأ باكتشاف الخطأ .. فكيف تكتشفه ، إذا حرّمنا عليها وسائل معرفته .. ؟ ؟

ليس معنى هذا ، أننا نبارك الهذر والأسفاف .. فالفرق بين الثقافة وبينهما واضح ومُبين .. ومع هذا ، فأكاد أحس بالحاجة إلى تحديد نسبي لمفهوم الثقافة التى أطالب بحقها فى التحرر من القيود ، إنها فى رأيى « كل تفكير صادق » ..

كل إنسان يفكر فى صدق وفى أمانة مع نفسه ، ومع الحقيقة ، فمن حقه أن نستمع له مهما يكن الخطأ المنطوى عليه تفكيره وتعبيره .

إن الصدق يتضمن الشعور بالتبعة : بل هو قمة هذا الشعور .. وحسبنا من الكاتب ، أو الفنان ، أو المفكر ، أو العالم — أن يكون على هذا الحظ من الشعور بمسئوليته وهو يؤدى رسالته .. وهو ينقل إلينا تجربته .. وهو يكشف لنا من المجهول جزءاً لم نكن نعرفه ، ولم نكن نراه .

نحن نعرف أولئك المفكرين الذين تحدثوا إلينا عن « مُدُنهم الفاضلة » ..

وعلى الرغم من أن معظم تلك الأحاديث وتلك المدن ، يمثل مغامرات فكرية ، لعب فيها الخيال ببراعة مُفْرطة إلا أننا ونحن نتلوها نُحِسّ احتراماً أكيدا لها .. لماذا .. ؟

لأنها تستمد مادتها من معالم تطورنا ، ويتضمن سياقها المرح إحساسا صادقاً وجاداً بمشا كلنا ..

وعلى العكس من هذا .. نجد كتابا يكتبون عن الواقع الذى نعيشه ، ويصورونه مشهداً مشهدا ..

ومع ذلك تجىء كتاباتهم هازلة ، ضَحْلة ، قليلة الجدوى .. ذلك لأنهم غير صادقين فى شعورهم بما يكتبون . بل غير صادقين فى إيمانهم بأنفسهم كمبلِّغين عن الحقيقة ، وسفراء لها بين الناس .

وهنا يواجهنا سؤال :

— من الذى يمسك بالميزان ، ويميز التفكير الصادق من التفكير الكاذب الهازل .. ؟

ونجيب ..

إنه الإنسان نفسه . والإنسان وحده ..

الإنسان المتمثل فى الإرادة الكلية لوعينا ، وتفوقنا وفضائلنا .. وهو على صعيد واقعنا القريب ، الرأى العام فى أعلى نقاط تطوره وصعوده ، « فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفاء .. وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » ..

إن تحرير الفكر والكاتب، والفنان من وطأة النواهى، ضرورى لبلوغ الكمال الميسور

والوعى الأدبى والفنى، هو خير هادٍ يهدى الكاتب والفنان إلى سواء السبيل .. وليس من حقنا أن نقول لأحدهما، أو كليهما «كخ» ..

فوظيفة كل منهما «الخلْق»، ومهمة كل منهما أن يكشف لنا عن الجانب الحسَن، فى هذا الذى نراه رديئًا أى أن يكتشف الحسْن الكامن، فى القُبح الماثل ..

وهذا يتطلب منه أن يعرض الصورة كلها، قبيحها. وجميلها. بل إنه كلما ركز على القبح ازداد نقيضة تألُّقًا وبهاء ..

إنما نطلب من الكاتب والفنان أن تكون أغراضهما الأدبية والفنية صاعدة ..

أى أن يدلنا كل منهما على ما يمكن أن يكون، من خلال تصويره لهذا الذى هو كائن ..

وهذا ليس قيداً نفرضه على حريتهما .. بل كشف عن مسئولية هذه الحرية، وهى مسئولية تتسق مع الحرية لأنها نابعة من صميم العمل الأدبى والفنى، ومن طبيعته.

وقبل أن نغادر هذه النقطة من الحديث، نود أن نؤكد أنه لا شىء يهدى للتى هى أحسن، ويبث الفضائل النائمة فى النفس بثًا عظيما

مثل الثقافة إذا مازجت طفولتنا وبدأت معنا من مهدنا

إن الثقافةقوة أخلاقية ، لا علمية وحسب .. وإنا لننتفع بها كقو أخلاقية كلما بدأنا بها مبكرين . أى إذا ملأنا وعى الطفل بروح الثقاة وروح المعرفة وذلك يقتضى أن تتوخى مناهج التربية السبل الآتية :

* أن يدرك الطفل أننا لا نُعلمه ، وإنما نقدم إليه خبرتنا .

* وأننا لانتحكم فيه ، وإنما نُشير عليه ..

* وأنه إذا كانت لنا عليه حقوق ، فهى ليست على حريته . بل على علاقاتنا المشتركة لا غير .

* وأننا نعاونه لكى يصير « إنساناً » لامجرد فرد .. أى أن تتجلى الشخصية الإنسانيةفيه بكل نبوغهاواستقامتها ، وتفوقهاتجلّياً كاملا .

* وعلينا أن نُنَمِّى حاسة الجمال فى نفسه ، فبقدر ما تكون حاسة الجمال نامية ونابضة ، يكون ميلنا للعظمة ، وجنوحنا عن الأسفاف ..

وعندئذ لا نرى الكذب دبلوماسية .. ولا الكبر اعتداداً ..

ولا السرقة ربحاً .. ولا اللؤم براعة .. ولا الأنانية تسامياً ..

ولا نرى الحب مجرد نزوة .. ولا المرأة مجرد ضجيعة ..

* وينبغى أن نجنبه الحظر ، والنهى ما استطعنا .. إن كلمة « لاتفعل » تَهَبُ الطفل نشاطاً سلبيا . ولكن « افعل » تروضه على النشاط

الايجابى الفعال .. فبدلا من أن نقول له : لا تكذب .. لنقل له : قل الصدق ..

أجل ، لنجعل أساس ثقافته الأخلاقية « افعل » بدلا من « لا تفعل » ولنحذر أن نقولها جافة غليظة .. بل لتكن « من الخير أن تفعل » ..

إذا توخت الثقافة هذه السبيل ، وغمرنا بها أطفالنا ؛ فليس هناك شىء سواها يهب أسمى الفضائل ، وأعظم الأخلاق ..

* * *

وكما أن الثقافة ترفض كل حظر أخلاقى عليها ، فهى أيضا ، ومن باب أولى ، ترفض كل حظر آخر .. ولقد أدرك ذلك كثيرون من المفكرين الكبار ، وإذ كانت السياسة تتمثل أكثر ما تتمثل فى الدولة كنظام ، فقد دفعتهم الغيرة الشديدة على الفكر وعلى الثقافة إلى مهاجمتها ، والتبشير بنهايتها .

أعلن « هويتمان » أن وظيفة الدولة . إعداد الناس لمباشرة أعمالهم بدونها ..

واعتبرها ــ نيتشه ــ « وحشا جريئا فى الكذب والسرقة . كل ما تقوله تكذب فيه ، وكل ما تملكه تسرقه » ..

ووصفها ـ تولستوى ـ بأنها « اتحاد مُلاّك » .. !

وتعجل ـ باكونين ـ نهايتها ، فتنبأ بأنه فى عام « ١٩٠٠ » ستلاقى الدولة مصرعها وتفقد كل دواعى قيامها ..

وحتى فى انجلترا المحافظة ارتفعت أصوات مفكرين وكتاب منادية بتصفية الدولة بكل منظماتها ، وتحويل مجلس العموم واللوردات إلى « مخازن للسماد » .. !!

والحق أن إمعان الدولة فى توكيد سلطانها من جانب ، والصراع السياسى بين دولة وأخرى من جانب آخر ، قد سببا للفكر الإنسانى ، وللثقافة من المتاعب ، وألحقا بهما من الأذى والضرّ ما يجل عن الوصف.. وكان هذا الأذى يبلغ أعلى مناسيبه دوما فى عصور الظلام ،والانحطاط ..

ولكن الفكر رغم ذلك كله حقق جميع انتصاراته ، وقال كل ما كان يريد أن يقوله .. وهو اليوم فى عصور الرُّشد والحضارة . أكثر قدرة على تحقيق ذاته ، وإذعة كلماته .. وإذن فتوفير الجهود المناوئة له هو وحده العمل الحكيم .

ذلك أن تعطيل فكرة لا تعطلها وحدها بل تعطل معها أفكاراً كثيرة كانت ستتولد منها ..

إن بذرة « المانجو » تحمل فى باطنها آلاف الأشجار ، بل تحمل عدداً لاينتهى من أشجار المانجو ..

كذلكم الأفكار ورُؤَى العقل ، يحمل كل منها أعداداً لا تنتهى من الأفكار والرؤى وخنق فكرة واحدة ، يعنى خنق عدد لا ينتهى من الأفكار . ، وكما نَتَنَشَقُ جميعاً هواء واحدا ، فثقافتنا نحن بنى الانسان واحدة ..

صحيح أننا نأخذ الهواء النقى ، ونتأى عن الفاسد الآسن .. وفى الثقافة سيكون لنا نفس السلوك ، لكن ليس من حق أحد مّا أن يحتكر لنفسه الحكم على الثقافة وتمييز نقيها من فاسدها

إنما الفكر الإنسانى ينقد ذاته ، وينفى خبثه .. وقيام فكرة فى وجه فكرة أخرى .. هو الذى يميز طيِّب الثقافة من خبيثها .. وليس ثمة فكرة تستطيع أن تفرض نفسها على المستقبل ، وتحجر عليه ، وتمنع ميلاد تفكير جديد ، وأيضاً من باب أولى ، ليس من حق السياسة ذلك .. وهى لا تملك قط تعقيم الفكر الإنسانى ولا تقدر على ذلك حتى حين تريد ..

قيل : إن الاسكندر زار ذات يوم الفيلسوف « ديوجينز » ، وسأله فى تواضع وأدب :

أليس لسيدى الفيلسوف ما يأمر به ، فيكون لى شرف تنفيذه .. ؟

وأجابه الفيلسوف الزاهد الكبير :

— نعم لى حاجة واحدة .. أن تتنحَّى بعيداً ، حتى لا تحجب عنى ضوء الشمس .. !!

لكن ، ليس الحظر الأخلاقى ، وليس الحظر السياسى ، هما وحدهما ، القوة التى تُناوىء الفكر وتتحدى الثقافة .. فهناك أيضاً — الحظر الاجتماعى ..

ونحن نعنى بالحظر الاجتماعى قوة التقاليد ، والتقليد .. إن للتقاليد ضرورتها وقيمتها ، فهى القوالب التى تعيش خلالها مراحل النمو والتطور للناس .. ولكن لها كذلك مثالبها ومضارها .. وشر ما فيها أنها تُغرى بالتقليد السلبى الذى يعطل قوى الخلق والابتكار ..

والثقافة تعنى — دائما — التخطى والمجاوزة : وكل نقلة جديدة لها تتضمن خيرما فى سابقتها. فهى إذن لاتهدم التقاليد بتجديدها وابتكارها ، وإنما تحولها وتطورها :

إن كل طور جديد من أطوار الثقافة ، يبدأ بأن يتلقى خير ماقبله ، ثم يستوعبه ويمضى به فى انطلاق جديد : وهذه العملية الدائمة تمارسها الثقافة بوسائلها دون ماحاجة إلى تدخل منا أو من أية قوة خارجة عنها سوى قوة الإنسان التبدية فى حركة تاريخه :

وإذا نحن حاولنا أن نعرف :

لماذا باحت حقيقة الجاذبية بسرها لإسحق نيوتن . ؟

لماذا تكشفت كروية الأرض وحركتها لكوبرنيكس وجاليليو . ؟

لماذا تبدت نظرية أصل الأنواع لدارون . ؟

ولماذا بزغت فكرتها من قبل فى وعى ابن مسكويه . ؟؟

لماذا تفتحت آفاق الفلسفة لابن باجه ، وابن رشد ، وابن سينا ، والفارابى . ؟

لماذا نبغ جابر بن حيان فى الكيمياء ، وكان من كبار رُوادها . ؟

لماذا أسلس علم الفلك قياده للبتّانى ، وأبى الوفاء البوزجانى ، وعبد الرحمن بن يونس . ؟ ؟

سنرى وراء كل هذه العبقريات تفوقاً على التقاليد ، وعلى التقليد . .
فالعصور التى تجلّت فيها تلك العبقريات كانت محافظة فى تفكيرها ، وكانت ترى فى هذه المحاولات ضروباً معتسفة من التجديف والمروق . ولو أن أولئك الأفذاذ وهَنوا ، واستكانوا ، لما قدر لهم أن يؤدوا الأدوار الكبرى التى أدوها .

بل ، لو أن المسيح نفسه ، وقف عند تقاليد قومه ومعتقداتهم دون أن يتخطاها ..

ولو وقف الرسول عند تقاليد الذين يخرّون للأصنام سُجَّدا — لما كانت المسيحية ، ولا كان الإسلام ..

فالثقافة — إذن — لكى تؤدى وظيفتها يجب أن تتحرر من كل تبعية للتقاليد ، وهى بتحررها هذا لن تكون كالثور فى متحف الخزف . ولن تبث الألغام المهلكة فى أرض التقاليد القائمة .. فبين الثقافة

والتقاليد روابط تاريخية ، تجعل كلا منهما يعطى الآخر ويأخذ منه .. وإنما ستهدم الثقافة من التقاليد كل ما استنفد أغراض وجوده وبقائه ، ويجب أن تُمكن من هذا لأنه من مقتضيات تطور الحياة الإنسانية كلها ..

حين تسيطر التقاليد على الثقافة تتحول — أعنى الثقافة — إلى مجرد تقليد ، وترديد ، واجترار . وتأخذ طابعاً محلياً ضيقاً عطِناً .. وتُفرز عفونات كثيرة أهونها التعصب المحموم لها .. وعندئذ يصبح « كبت الحقيقة » هو الفضيلة التى يثمرها الذكاء وتقتضيها المسايرة .

وإنا لنعلم أن شرّ ألوان الاستبداد ، هو « استبداد الكلمة » ..

وإن بضع كلمات ، كانت تقول « الأرض مسطحة » ظلّت تستعبد البشر أحقاباً تلو أحقاب ، حتى إذا انشقت الصفوف المذعنة عن بضعة أفذاذ أرادوا أن يجاوزوا الضباب إلى مطالع الضوء .. هبّت التقاليد فى وجوههم باطشة فاتكة ، فسَجنت ، وشَنقَت ، وأحرقت .

إن الثقافة من عمل الإنسان .. ولابد لها من مجاوزة التقليد إلى الابتكار ، والمحلّية إلى الشمول . فذلك من صميم طبيعتها .

وحيث يوجد « إنسان » فثمّ وطنها .. فليس لها وطن خاص ، ولا جنسية خاصة ..

فالثقافة الماركسية السائدة فى روسيا وفى الصين وفى كثير من بقاع الأرض — اكتشفها عقل ألمانى ..

ونظريات ابن الهيثم فى الضوء .. واكتشافات أبى بكر الرازى فى الطب والكيمياء .. ونظرات ابن رشد والفارابى وابن سينا فى الفلسفة. هى التى علّمت أوربا ، ولا تزال تقتعد مكاناً جذريا فى ثقافة أوربا السامقة ..

كما أخذ علماء العرب وفلاسفتهم هؤلاء ، عن الثقافة اليونانية ، التى تلقّت هى الأخرى عن الثقافة المصرية .

فالمحلّية والتقليد ، دخيلان على الثقافة ، وهى ترفضهما بقدر ما تسمى إلى الانتشار والابتكار وحين تتأثر ثقافة بأخرى ، فهى فى الواقع لا تقلدها إلا إذا وقفت عندها ، وأخذتها بطريقة النقل الحرفى ، وشفّ الصُّوَر .. وهذا شىء غير ممكن حتى لو أراده الناس .. لأن طبيعة الثقافة تقودها . وطبيعتها هى الاستيعاب ، والتحويل والخَلْق ..

وكل ثقافة تتأثر بأخرى فى هذه الحدود .. والإيمان بهذا ضرورى للناس كى يوفروا الجهود العدوانية التى ينفقونها عبثا ضد الثقافة .

× ×

إن الجهل بعالميـة الثقافة يحمل على التعصب الذميم والخوف الأهوج .. التعصب لثقافة مّا ، والخوف من ثقافة أخرى .

كما أن ضراوة العبقرية ، وعبادة البطل ، حين يكون هذا البطل مفكرا .. بعض نتائج هذا الجهل .. وهما يشكلان خطراً على الثقافة جدّ عظيم

فنحن حين نؤمن بثقافة ما ، أو بعبقرية ما ، إيمان العوام — فإن هذا الإيمان يدفعنا غالبا ، أو دائما ، إلى الاستخفاف بما عدا هذه الثقافة . وهذه العبقرية .

والذين تستَرِقُّهم وتستعبدهم عبقرية فرد ، كثيراً ما يُحرَمُون الانتفاع بعبقريات الذين يناهضونه .

وكما يحدث هذا للأفراد ، يحدث للأمم والجماعات ..

ولذا فإن مَناصنا العظيم ، هو عبقرية الإنسان ..

وعبقرية الإنسان لا يملكها واحد ، ولا مائة ، ولا ألف .. لا تملكها أمة .. ولا جيل .. ولا عصر .. إنما يملكها النوع كله ، ومَجْلى ظهورها جميع الزمان .. ، وجميع الناس ..

والثقافة ليست معرفة فحسب ، بل هي كذلك نفوذ . .

ونفوذنا يتسع بقدر ما يكون معنا من ثقافة . كما أن كل إهمالٍ لِثقافة ، وإعراض عن فكرة ، ومناهضة لمرفة ، يعني نقصاً كبيراً في نفوذنا ..!!

والثقافة تحرير ، لا استعباد . . !

وهى بهذه الثابة تدعونا لأن نتعلم من جميع الملمين ، ثم نسير وحدنا دون أن نكون ظلالا للآخرين مجرد ظلال ..

وهذا واجبنا نحن بنى الإنسان فى كل زمان ، وفى كل مكان . . أن نتعلم من جميع الملمين دون أن نفقد فى غمار عظمتهم استقلالنا الفكرى ، ودون أن نتحول إلى إمّعات تائهة

أو على حد تعبير « امرسون »[1]

« اشكروا الله على هؤلاء الرجال الأخيار . . . . . »

« ولكن ، ليقل كل منكم : أنا كذلك إنسان ـ »

هذا هو الامتياز العظيم الذى تقدمه الثقافة لنا ، وتُفيئه علينا . وإنها لتمنحه بقسطاس مستقيم لجميع الذين يسعون إليه ويريدونه . . جميع الذين يعلمون أن الحقيقة ليست ملكا لأحد ، ولا ملكا لجماعة ، ولا ملكا لعصر . . جميع الذين يهربون من الرق . حتى حين يكون استرقاق الكلمة الصادقة نفسها .

وهذا الامتياز كذلك ، هو الحد الفاصل بين الثقافة والتعليم . .

إن التعليم يُؤهلنا . . أما الثقافة فتعلن سيادتنا ، وتؤكد تفوقنا على كل عوامل التبعية والخضوع . .

وحين نتتبع جميع الذين اكتشفوا لنا قوانين الطبيعة ، وقوانين المجتمع ، وجميع الذين نقلونا من عصور الجهالة إلى عصور النور والعلم ،

(١) كتاب (مختارات من امرسون)

نجدهم جميعا وبغير استثناء من المثقفين .. أعنى من الذين جاوزوا التعلُّم إلى الثقافة . . جاوزوا الاطلاع إلى الانشاء والخَلْق . . جاوزوا عبادة البطل المفكر إلى اكتشاف البطل فى أنفسهم ، وفى ذواتهم ومواهبهم . .

أجل . . . لنشكر الله على جميع المعلمين والرّواد ، ولكن لنفسح صفوفنا لآخرين وآخرين فإن معجزات الانسان لا منتهى لها . .

إن شر ما نصنعه هو أن نحمل المفكرين على نبذ آرائهم لمجرد أنها لا تتسق وآراء آخرين من الأطواد الشامخة ، والعبقريات الفذة . . أو لأنها لا تتفق والعُرف السائد والمعرفة القائمة ، فكأىّ من أفكار نبذها الناس ذات يوم وحاربوها وفتكوا بأصحابها . . ثم إذا بها تفرض فيما بعد نفسها ، ويتبين العقل الإنسانى أنها حقائق ، وقوانين ، ومُسلّمات . .

ومَن الذى أُوتى الحكمة كلها .. ؟؟ لا أحد .. والذى يظن أنه وَعَى جميع الحقيقة ، إنما يجهل الحقيقة جهلا كبيراً .

ولقد عبّر عن هذا المعنى تعبيراً سديداً ، العالم الرياضى الكبير — لاجرانج — حين جعل شعاره :

« لا أعرف » . . . !!!

وأيضا عبّر عنه العالم الرياضى « ليبنتز » حين قال[١] :

---

(١) كتاب « رجال الرياسة » .

« لدىّ الكثير من الآراء التي ربما تكون ذات »
« فائدة يوما ما ، عندما يُقيض الله لها آخرين ممن هم »
« أذكى مني ؛ فيفحصونها فحصاً عميقاً ، ويصلون بمال »
« عقولهم بمجهودات عقلي . . .
كذلك عبّر عنه « نيوتن » في قوله المأثور :

« إذا كنت قد رأيت أبعد قليلا مما رآه الآخرون ،
فما لهذا من سبب إلا أنني كنت أقف على أكتافهم ... »

وقوله الحكيم :

« لا أدرى كيف ينظر إلىّ العالم ، ولكني أتراءى »
« لنفسي كما لو كنت غلاما يلهو على شاطىء البحر ، »
« وأسلّي نفسي بين الحين والحين بالعثور على حصاة »
« أكثر ملاسة ، أو صدفة أكثر جمالا ، بينما محيط »
« الحقيقة العظيم يمتد أمامي ، دون أن أعرف عنه »
« شيئاً ... !!

× ×

فلتقل كل ثقافة كلمتها ، ولتخرج خبء تفكيرها ، ولتُذِعْ بين العالمين فلسفتها وآراءها ... فليس على ظهر الأرض سلطة أعلى من سلطة الفكر تستطيع أن تزعم لنفسها حق التحكم فيه وحق توجيهه .

والكلمة . . هي الفكر منطوقا ، أو مسطورا . .

وصدقت آية الإنجيل . . « فى البدء كان الكلمة » ...

فلتأخذ الكلمة كل حقها فى الذيوع والانطلاق . . وكل حقها فى أن تظل جليلة عزيزة ، فلا نسف فى استعمالها ، ولا نتوسل بها لتحريف الحق ، وتمجيد الكذب .

ولندع الثقافة حرة طليقة ، إلا من الضوابط التى تضعها هى لنفسها .

ولنرحب بكل ثقافة تثير الذعر فى نفوسنا ، لأنها دليل على أن بهذه الأنفس خوفا مُذلا ، يجب أن يرحل . .

وبكل ثقافة تثير الشك فى أنفسنا ، لأنها توقظ إرادة اليقين لدينا ، وتزودها بالبصيرة والفهم . .

وبكل ثقافة تسمعنا حشرجة الأنقاض المتهاوية داخل تفكيرنا المدْبر ، لأنها تبشر بميلاد جديد لوعينا ...

وبكل ثقافة تتحدّى أفكارنا وآراءنا ، لأنها ستكشف عن زيفها إذا كانت زائفة ... أو تزيدنا إيمانا بها وإصراراً عليها إذا كانت صادقة...

وكلما جعلنا شعارنا نحن البشر — « ثقافة بغير قيود » .

وكلما استمسكنا بهذا الشعار ، ازداد نفوذنا فى الحياة .

فلنصنع هذا ، صادقين .

ولنتق بالفكر الانسانى العظيم ، ولنمض معه ، فإنه يتقدم بنا فوق الخوف ، وفوق الظلام ...

التحديد والاختيار

هناك قصة تُروى ..

ربما تكون قد وقعت بذاتها ، وربما لم تقع ، ولكن مفهومه يتكرر فى صور لا تُحصى ، ويُمثل مأزق البشرية كلها ..

استأجر أحد الناس رجلا شديد القُوَى لقطع بعض الأشجار .

وعند الغروب ، دَهِشَ إذ وجده قد أنجز فى يوم واحد ما كان يتطلبه أربعة أيام ..

وفى اليوم الثانى كلّفه أن يصفّ الأخشاب و يَرُصّها ، وأنجز الرجل عمله هذا فى وقت جدّ وجيز ..

وفى اليوم الثالث عهد إليه التاجر بكومة كبيرة من البطاطس ، وكلّفه أن يفرزها . وقال له : أما الفاسدة ، فانبذها . ثم ضع الجيدة هنا .. والأقلّ جودة هناك...

وفى آخر اليوم جاءه . ، وكم كانت دهشته حين ألفاه لم يُنْجز من العمل إلا أقلّه . .

وسأله : ماذا دهاك .. ولماذا هذا البطء الشديد .. ؟؟ فأجابه الرجل : — « إن الصعوبة التى أجدها فى الاختيار والتمييز بينها ، تكاد تقتلنى » ... !!

إنى لأذكر دوما هذه القصة ، كلما تراءى لى سعى الناس فى الحياة .

وأذكرمعها فى نفس اللحظة ، ولنفس السبب ، كلمات الفيلسوف « سانتايانا » :

« ليست الصعوبة الكبرى فى الحياة أن نختار بين الخير »
« والشر .. بل أن نختار بين الخير ، والخير... »

هذه هى مأساتنا .. وفى نفس الوقت هى عظمتنا .

أجل ، وهذا مأزقنا العظيم . . !!

الاختيار بين الجيد والأجود ... بين الحسن ، والأحسن ، وليس يبدأ مأزقنا من هنا ... من عملية الاختيار ذاتها . . بل يبدأ قبلا من التحديد الذكى للأشياء ، تحديد الحسن ، والأحسن ، وتحديد الردىء الذى سننبذه جانباً ...

التحديد ... والاختيار ... ؟؟

يالهما من كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين فى الميزان .. !!

فهما معراج الحياة البشرية كلها ... وبسبب منهما تمت جميع خطواتنا الظافرة إلى أمام .

× ×

ولكن كيف نحدد ، وكيف نختار . ؟؟

لقد كان سبيلنا لهذ ، ولا يزال — « الخبرة والتفكير »...

والخبرة هنا ، لا تعني مجرد نزهة ممتعة ؛ إنما تعني الكدح والمعاناة .
وكما يقول « جون ديوى » :[1]

« لكي نختبر شيئاً ما ، فالذى يحدث أننا نؤثر فيه ، »
« ثم نتلقى نتائج فعلنا ، تأثيرا مماثلا ينعكس علينا من »
« الشيء ذاته.. »

أى أن الخبرة ليست مجرد مزاولة العمل ، بل هى معاناة العمل بكل تجربته وخطئه .. ثم هى الألم ، أو الشوق الذى يرتبط كل منهما بالتجربة ، ويظل مرتبطاً بذكراها ...

وهكذا ، فالخبرة فى حقيقتها ليست مجرد اكتشاف شيء ما ، وإنما هى اكتشاف أنفسنا داخل هذا الشيء ، واكتشاف روابطنا به ، واكتشاف جميع العلاقات التى يعمل داخلها ذلك الشيء نفسه .

وهذا ، هو العمل الصعب للتفكير . . فالتفكير بدوره لا يعنى إدراك المجردات .. لا يعنى إدراك الأشياء معزولة عن علاقاتها ... وإنما يعنى إدراك العلاقات وتمييزها .

يعنى اكتشاف الروابط بين أعمالنا وعواقبها .. يعنى الأحساس بمشكلة .. ثم ملاحظتها بكل ما تنطوى عليه الملاحظة من شك وحيرة .

(١) كتاب « الديمقراطية والتربية »

ثم من حدْس وتأويل . ، ثم من فحص وكشف وتحليل . .

ويعنى أخيراً — المعرفة .

• وعندما نعرف ، يتسنى لنا أن نحدد ؛ ونختار . . وهكذا تبدو المعرفة ولها قيمة ثانوية لاغير ...

أما القيمة الأساسية حقاً ، فهى لعملية المعرفة نفسها ... هى لخبرتنا المنطوية على التجربة والخطأ والمعاناة .. ذلك أن هذه العملية لا تثمر المعرفة الصحيحة فحسب . ، بل وتثمرنا أنفسنا ، ونصهر كل ملكاتنا ، ومواهبنا ... كما نواصل عن طريقها تنمية جوهرنا واستعدادنا .

فالناس الذين يتلقون « معارف جاهزة » ، ليسوا كالآخرين الذين اكتشفوا هذه المعارف ، وعانوا خلقها .. والطفل الذى تعلم شِفاها ، أن التيار الكهربى يصعق ، لن يكون أكثر حذراً ، من الطفل الذى عانى التجربة نفسها ، وكاد التيار ذات يوم يصعقه ...

وحين تَنقل لوحة فنية بطريق « الشَّف » دون أن تعانى — على الأقل — عملية رسمها ومحاكاتها ؛ فأنك لاتكون قد أتيت أمراً مذكوراً . .

فالمعرفة الحقة — إذن — هى أن تُعانى تجربة هذه المعرفة . .

والاختيار الحق ، والحرية الحقة ، هما أن تعانى تجربتهما . .

فبدون معاناة تجربة المعرفة — لامعرفة ...

وبدون معاناة تجربة الحرية — لا حرية ...

أى أن التجربة والخطأ بالنسبة لشيء ما ، هما سبيل وجوده ، وهما من صميم جوهره وحقيقته ...

فالكمال المطلق فى حياتنا البشر غير موجود — أما الوجود فعلاً ، فهو الكمال الميسور .

والذين يريدون « معرفة » بغير خطأ ..

« وعدلا » بغير مَيْل . .

و « حرية » بغير إساءة . .

و « فضيلة » .. بغير نزوة .. جدّ واهمين ...

وكما أن وجود الخطأ ، لايبرر عدم « الفعل » فوجوده أيضاً ، لا يبرر « سَلب الحق » ... !

ومن حقوق الإنسان المقدسة ، أن يختار

ووقوع الخطأ فى اختياره ، لا يمكن أن يسلبه حقه فى الاختيار ! سيما . والخطأ من صميم تجربته . . والتجربة هى كل شيء فى تفكيره ، وفى مصيره ...

من هذه البديهة ، نبدأ الحديث عن قيمة «الاختيار» فى حياة الانسان

ونحن لانعرض الاختيار ذلك العرض الفلسفى النظرى ، الذى يبحث ويسأل : هل الانسان مُجبر ، أم مختار . . ؟ كلا ... ليس هذا موضوع حديثنا بحال ...

إنما نتحدث عن الاختيار ، كضرورة إنسانية . وحقيقة تاريخية مارست عملها ونجم عنها كل مافى حياة الانسان من تقهقر وارتقاء ...

* * *

الانسان الذى قلنا أنه بدأ حياته كانسان ، وهو مُزَوَّد بتصورات هائلة ، ومنطو على تجارب مبهمة لامنتهى لها ... والذى صادف فى حياته الانسانية حشوداً متساوقة متتابعة من الأحداث والتجارب ... ليس أصعب عليه من أن يختار ...

ولكأنّ أقداره حين ناطت حياته بالاختيار ... وحين أحاطت الاختيار بكل هذه الصعوبة ، وتلك المعاناة ... قد أرادت أن تشعره ، وتملأ رُوعه بأن الحياة جد لا هزل . وأنها ليست منتدى يحتسى اللهوَ سُمَّارُه ... إنما هى عمل دائب لا يقر قرارُه ...

إن بطل القصة السالفة التى بدأنا بها حديثنا هذا ، يمثل موقفنا جميعا من الاختيار ...

فلقد كان الرجل أيِّداً ، عارم القوة . شديد الغَلَب ... يقتلع الأشجار ، ويرص كتل الخشب ، وكأنّ العمل الشاق بين يديه دُمْيةٌ يتلهى بها ويتسلَّى ... لكنه لم يكد يجلس إلى « كومة » البطاطس ، حتى ضعف وبان عجزه .

لم تصرعه « حبات » ...البطاطس الضعيفة الرخوة... وإنما أشقاه وبلبل خاطره ، عجزُه عن التمييز بينها . ولقد كان ذكيا حصيفاً ذلك الشاعر الذى قال :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الجهالة ينعم

غير أن هذه الشِّقوة بالعقل ، من أجَلِّ مزايا الإنسان وأعظم فُرص تقدمه وسعادته .

والانسان لم يكتشف نفسه تماماً ، إلا حين واجه هذا المأزق العظيم فى حياته ... حين سمع نداء بارئه المتعال يجلجل فى أعماقه : أنْ تقدم . لقد منحتك كل أسباب التفوُّق .فأرنى الآن ، كيف تصنع ...

× ×

والاختيار فى مدلوله العميم ، يتمثل فى موقف واحد ، هو اختيار الانسان مصيره .

ولقد اختار الانسان مصيره فعلا ، ويتلخص فى هذه الكلمات

- أن يَسُود أرضه ...
- أن يسود عالمه ...
- أن يسودُ نفسه ..

هذا هو المصير الذى اختاره الانسان وشدّ إليه الرحال

والسيادة هنا ، لاتعنى سوى التفوق المستمر

ولقد رأينا كيف ساد الأرض فملا وجعلها وطنا مناسبا وعظماله ..

ورأينا كيف ساد عالمه بكل علاقاته الطبيعية والبشرية ...

وإنما يأخذنا الشك فى أنه ساد نفسه ...

بَيْدَ أَنَّهُ مِن الإنصاف للانسان ، أن نعترف له بالسيادة على نفسه أيضا . ولن يُعجزنا الْتماسُ مظاهر هذه السيادة عَبْرَ تاريخه وتطوره ..

ونحن فى حقيقة أمرنا ، لانستريب فى تفوقنا الروحى هذا ، إلا بدافع الإدراك السديد لقيمة هذا التفوق ، وإلا بدافع الرغبة النبيلة فى الظفر بالمزيد منه .

هذه السيادة إذن . . سيادة الإنسان عالمه ، وأرضه ، ونفسه ، هى الغرض الذى يتمثل فيه مصيره الذى اختاره ..

وثورات العلم ضد الجمود والعجز ، وثورات الشعوب ضد الملوك المستبدين ، لم تكن تعنى إلا أن الإنسان يمارس اختياره وأن البشرية تقرر مصيرها

صحيح أنه مَرَقَ من صفوف البشرية من قاوموا بجيوشهم وأساطيلهم حق تقرير المصير لكثير من الأمم المسالمة ، والشعوب الوديعة المنادية بحقها

لكنّ تشبث الإنسان بحقه فى اختيار مصيره الحرّ . ، وتشبثه ببلوغ هذا المصير ، كان ـ ولا يزال ـ يدفع قوى الشرّ أمامه كالكرة .

وكانت القلاقل البشرية — ولا تزال — تثبت أنها ، على حد تعبير جيفرسون ، « لم تولد بسروج على ظهورها » . وهكذا رأينا ، ونرى ، كيف تحقق الإنسانية كل يوم انتصارا عظيما يقترب بها من مصايرها العظيمة الواعدة ..

كان — غاندى — ، وهو يطوف قرى الهند ليجمع الناس حول دعوته ، وليثير فيهم الإصرار الوديع على نيل حقهم ، وأخذ حريتهم — يقول لهم :

« لم يستول الانجليز على الهند فنحن الذين أعطيناهم إياها »
« وسنحصل على الاستقلال ، عندما نتعلم كيف نحكم »
« أنفسنا . ، إذن فالأمر لنا .... »

الأمر لنا ...

هذه العبارة الموجزة كل الإيجاز ، هى الطاقة الهائلة التى انتصر بها غاندى ، وانتصرت بها أمته ..

أجل ، هى ، لا لمجرد أنها عبارة .. بل بوصفها عقيدة آمن بها غاندى ، وعلم شعبه أن يؤمن بها ..

إنها تمثل القوى السحرية المخبوءة فى التحديد والاختيار ، حين يتضمنان إرادة تنفيذها ..

وهذه العبارة نفسها ، « الأمر لنا » .. هى القوة النافذة التى سار بها الإنسان مخترقا الحواجز متخطياً العقبات ..

لم يكن الإنسان يلوكها بلسانه ، ولا يخطّها ببنانه ثم يتمطّى وينام . بل كان يمارسها ، ويعيشها ، ويحياها ..

وإن أروع آيات الإنسان حقاً هي أنه عاش دائماً هذا المبدأ «الأمر لنا» . وهو لم يعِشه متبذخاً به ولا مُتباهياً ، بل جاداً ، معانياً ، مكابداً . .

فلكي يكون الأمر له يجب أن يستمتع بأهلية راشدة تمكنه من حيازة الأمور . . وهذه الأهلية لا تُباع فيشتريها ، ولا تُدرك بالحظوظ النائمة . وإنما بشَحْذ كل ما آتاه الله من موهبة وقدرة ، ولقد فعل . ، وعن طريق التجربة .. والتجربة وحدها .. مضى يُباشر جُهْده النبيل الجليل ، بانياً نفسه ، مكتشفاً دوره ، مختاراً مصيره .

ومذ كان يسكن الغابة والكوخ ، إلى اليوم الذى أطلق فيه صواريخه نحو الكواكب العُلى ، تُنْبئها بقرب قدومه ...

من ذلك اليوم البعيد مُنتهى البعد ، حتى أيامه التى يعيشها الآن وهو يُجابِهُ بعزمه الجسور مشكلات ضخمة تناوئه ، وتريد أن تدحض حقه ، وتقِف مسيره ولكنّ إيمانه بأن الأمر له ، كان يُفرغ فى ذكائه من التوفيق ، وفى يديه من القوة ما يجعل الصعب سهلا ، والخطر متعة ، والمستحيل ممكناً ..

ولقد حذِق الانسان هذا الدرس ، وأجاد حمل تبعاته ..

وأكثر أبناء جنسه ونوعه تفوقا فى الحياة هم ـ دائما ـ الذين حذقوا معه ذلك الدرس العظيم ..

هم الذين يتواسون بالحق المشترك بينهم ، مؤمنين بأن الأمر لهم ، وبأن المسئولية مسئوليتهم ، وبأن المصير مصيرهم ..

هم الذين يقدرون على أن يحددوا .. وعلى أن يختاروا .. وعلى ن يمضوا ، وينجزوا .

ونفس الطريق الذى سلكه الانسان لينشىء « مشيئته المختارة » ، هو الذى لا معدل عنه لكل جماعة إنسانية تريد اللحاق بموكب الانسان أعنى الخبرة . ، والتفكير ..

أعنى معاناة التجربة معاناة كاملة .. وإدراك مدلولها إدراكا سادقا .. واختيار الموقف الذى توحى به التجربة والإدراك .

وفى تقرير المصاير البشرية جميعها — السياسية ، والعلمية ، والاجتماعية ، يجب أو ينبغى أن يكون هذا هو السبيل ..

× ×

ويجب ، أو ينبغى ألاّ يكون الخطأ سبباً فى التخلّى عن التبعة بحال ..

وما دمنا — نحن البشر — نختار حياتنا ، ونختار مصيرنا ،

فلا بد أن تكون مادّة الاختيار بين أيدينا .، وأن يكون معنا من الطمأنينة القَدْر ، الذى يسمح لنا بالتصرف وبالمناقشة .

أى لا بد أن نعرف كل شىء عن حياتنا ، وكل شىء عن مصيرنا .

وحياتنا ، هى عاداتنا ، وعقائدنا ، ومؤسساتنا

هى تجاربنا ، وكفاحنا ..

هى آلامنا ، وآمالنا ..

هى لَهْوُنا ، وجِدُّنا ..

وبعبارة واحدة ، هى كل ضروب نشاطنا الإنسانى .

ومصيرنا ، هو الطريق القويم الذى تتحقق عليه أغراض وجودنا .

فلكى ننظم هذه الحياة ، التى هى حياتنا .

ولكى نستقبل ذاك المصير ، الذى هو مصيرنا ، ينبغى أن يُوضع كل شيء يتعلق بهما بين أيدينا ، وتحت أعيننا ، وتفكيرنا ، واختيارنا

إن حرية الاختيار تمثل اليوم فى حياة البَشَر « مركز التنفس »

— ولئن كانت كذلك فى كل وقت ، إلا أنها اليوم أكثر ، وأخطر .

فقديما ، كان اختيار جماعة ما ، أو أمة ما ، يُؤثّر فى حياتها أولا ، وبالذات .. ثم لا ينتقل هذا الأثر إلى المجتمعات الأخرى النائية إلا

بعد زمن طويل يعتصيه بعد الشقة ، وندرة وسائل الاتصال .. وعبر هذه الرحلة الشاقة الطويلة ، يكون الأثر قد تقطعت أنفاسه ، وتبددت وطأته ..

أما اليوم ، فآثار التفكير والاختيار تنتقل بسرعة الضوء ، مع وسائل شتى قهرت الأبعاد والمسافات ..

أجل ، تنتقل مع المذياع ، والسينما ، والصحافة ، والكتاب

وحين يختار شعب « رقصة » معينة لنفسه ، نبصر هذه الرقصة ذاتها ، وبعد بضعة أيام من اختراعها واختيارها ، تملأ أركان الأرض وتتلوى بها أجسام الملايين فى معظم البلاد والشعوب .. !

فالاختيار فى عصرنا هذا لم يَعُدْ محليا . بل هو عالَمى واسع النطاق — ومن أجل هذا تعظم تبعاته ، وتكبُر مسئولياته ..

إنه يفرض على الناس فى كل الأرض . أن يفكروا طويلا قبل أن يختاروا . وأن يعلموا أنهم لا يختارون لأنفسهم وحدها ، ولا بأنفسهم وحدها .. وإنما يختاررن للعالم كله ، ويختارون أيضاً بتأثير من مزاج العالَم كله . وهذا يقتضى أن يكونوا وهم يختارون ، على أكبر حظ من الوعى ومن القدرة على الاختيار .

وكل شعب من شعوب كوكبنا هذا ، مدعو لمعاناة تجربة التحديد والاختيار ، مهما تكن تكاليفها ، ومشقاتها . وإلا وَضع نفسه مختارا تحت الوصاية .. وسبّب للبشرية كلها نقصاً فى نفوذها —

ذلك أن النفوذ الإنسانى هو ثمرة الإرادة الإنسانية .. والإرادة الإنسانية تشكلها إرادات الرُّشْد التاريخى والجماعى لكل أمم الأرض وشعوب الإنسان .

واختيار كل أمة لنفسها ، لن يعنى التفسُّخ ، والتشتُّت ، والفرقة بين أبناء عالمنا الواحد . فالتطور الإنسانى يَمى نسه تماما . ونحن إذ نمضى فى مساره ، إنما نستهدى بوعيه ، ونتأثر به ، ويناديننا مجاله المغناطيسى ، فنلبى نداءه ..

وكلما اتّسع تطورنا هذا لمزيد من الوعى ، ومن الفكر ، ومن الثقافة — كثرت نقاط الالتقاء والتجمع بين الجماعات الإنسانية كلها . ويتم التجمع بين جماعات قوية واعية ناهضة ، حين تكون جميعا قد مرّت بتجربة الاختيار ، وكوّنت لنفسها تلك الشخصية الحرة المستقلة النامية التى يثمرها الاختيار .

وهكذا يتجلّى ظهور الإنسان فينا على نَسَق باهر عظيم

× ×

وكما نادينا فى الفصل السالف بمبدأ « الثقافة للكافّة » ننادى هنا بمبدأ « الاختيار للكافّة » ..

لقد قلنا : إن عصر « الثقافة للصفوة » قد انتهى .. أو بدأ ينتهى ، وعلينا أن نُعجِّل بنهايته ..

ونقول : إن عصر « الاختيار للصفوة » يواجه نفس المصير ، وينبغى أن يواجهه .

والكنَّاس ، كالفيلسوف فى الميزان . .

ولا ينبغى أن نعطى عبقريا حق الاختيار ، ثم نحرم أباه الذى كان حطابا ، أو نجارا ، أو من غمار الناس . فهذا الأب المغمور ، هو الذى حمل فى صُلْبه ولَده العبقرى أو العظيم ، وهو الذى أوصل إليه ميراث العبقرية ، ومَنَحه وُجوده .

ثم إن الاختيار ، ليس عملا من أعمال الترف والصَّلَف حتى يكون وقفاً على الخاصة . بل إن له وظيفة أسمى وأجلّ ، ووظيفته هذه تجعل أمر تعميمه واجباً مفروضا . فوظيفة الاختيار الحقة هى :

أولا : ترشيد الوعى الإنسانى .

ثانياً : الكشف عن الإرادة الكلية للجماعة الإنسانية .

لنفرض أننا دعونا سكان الكرة الأرضية جميعاً للاشتراك فى استفتاء حر ، نتبين عن طريقه رأيهم فى الحرب وفى السلام . .

ولنفرض أنهم جميعاً ، أو معظمهم رحَّبوا بالحرب ، ورأوا فيها علاجا لآلام الحرب الباردة ، وحرب الأعصاب القائمة .

إن هذا الرأى — لاريب — فاجعة وبيلة . لكن الكشف عنه عمل عظيم . . !!

فهذا الكشف دلّنا على « إرادة كلية » للناس لم يكونوا يعلمونها . . وهذه « الإرادة الكلية » تشكّل خطراً داهما . . وهى وإن تك يوماً فى حالة كمون ، فإنها فى يوم آخر ستعلن عن نفسها لا محالة . .

وإذن فمن الخير العظيم أن نعرفها ، ونكتشفها ونتتبع مأتاها ، ونلوى زمامها . .

والأرادة الكلية حين تتكشف وتتبدّى ، نأمن عثارها مهما يكن الخطأ الكامن فيها ، لأن وجوه الرأى السديد سرعان ما تجنّد نفسها لتقويم العوج ، وإحكام الاتجاه .

والوعى الإنسانى لا يفقد أبدا ، من يضع أصبعه على مصباح الحقيقة فيضيئه له ، حتى لو يكون طفل . « هانس أندرسون » الذى كشف عُرْى الامبراطور ، وفضح « نسّاجى صاحب الجلالة » وردّ للجموع الجبانة المخدوعة شجاعتها وعقلها ، حين صاح بينها : « إن الامبراطور عريان » . . فإذا الناس يُقبل بعضهم على بعض يتهامسون ، ثم يتصايحون : « أجل . . إنه عريان . . إنه لعريان » . !!

وإذا كان تبيُّن الإرادة الكلية للناس حتميا ، حتى حين تمثل هذه الإرادة خطلاً وخطأً ، فكم تكون حتميته ، والإرادة الكلية خير عميم . ؟؟

أجل ، إن الارادة الكلية للبشر لا تجتمع على ضلالة ، لأنها جماع ما فى البشرية من ذكاء ، ووعى ، ورغبة فى التفوق ، وإصرار على النهوض . . ونحن فى الحقيقة لسنا بكثير حاجة إلى تبيُّن وجهتها ومقصدها ، فوجهتها معروفة بالبديهة وهى المُجاوزة الدائمة ، وتخطِّى الحسَن إلى الأحسن باستمرار . .

لكنْ ما نحن بحاجة إلى تبينه دائما ، هو الطريق ، والوسائل التى تتوسّل بها هذه الارادة لبلوغ وجهتها ، وتحقيق غرضها .

فالوسيلة مرنة ومتغيرة . ولكل عصرٍ وسائله الناسبة ، ونُظُمه ومناهجه ، ومؤسّساته الملائمه . .

وهنا المَجال الحيوى الفسيح للاختيار .

وهنا كذلك المَجْلى الحقيقى لإرادة الإنسان .

× ×

كان القديس « أوغسطين » حين يُسأل عن سرّ الزمان يجيب :

« إنى أعرف الزمان ، إذا لم يسألنى عنه أحد . . »

« أما حين أحاول تفسيره للسائل فأنى أجهله . . . »

ولقد بقى الاختيار كمشكلة فلسفية ؛ يتخذ فى الأذهان صورة كصورة الزمان فى ذهن أوغسطين . .

حدث هذا ، ولا يزال يحدث عندما نناقش « الاختيار » من حيث صلته بالقضاء والقدر . .

أما حين نطرحه ـ كما قلنا من قبل ـ باعتباره ضرورة إنسانية عليها أن تحقق نفسها فى العالم الخارجى ، وباعتباره حقيقة تاريخية تتبدَّى سافرة واضحة فى الحركة الإنسانية كلها ، صغيرها وكبيرها ؛ فحينئذ يكون موقفنا الفكرى منه واضحا ، ولا نجهل من حقيقته ، ولا من دَوْره شيئا . .

إن قصة الحياة الإنسانية كلها ، هى قصة الاختيار الإنسانى ، فى حريته الخالقة . .

وبعـــد...

. الآن يبلغ الكتاب تمامه ، وتُشْرِف هذه الصفحات على غايتها .

فهل فرغ حديثى عن الإنسان . ؟ ؟

إذا كان تصوُّرى لعظمته ، ولمستقبله ، سيُصِرُّ على أن ينقل نفسه ، ويُعبِّر عنها فى صحائف مكتوبة ، فما أكثر ما أحتاج — إذن — إلى كُتب تروى هذا التصور الغَدَق المفيض ..

على أنى سعيد بنعمة الله علىّ فى هذه العُجالة التى ضمَّنْتُها علاقتى بالإنسان ..

ولسوف أظل أذكر لهـذا الذى أنبته الله من الأرض نباتاً ، ثم سوَّده عليها ، واستخلفه فيها .. سوف أظلّ أذكر له كدحه ، وشقاءه ، وأخطاءه ، أكثر مما أذكر له فوزه ، ومباهجه ، وذكاءه .

أى أنه من حيث يتشاءم كثيرون ، وينفضون عن الإنسان فى جزع أليم ، سأنشر أنا شراع تفاؤلى ، وأقبل على الإنسان فى ثقة سابغة ، وفى ولاء كريم .. !!

ذلك أنى — فيما أحسب — قد عرفت ما هو .. وأدركت من فداحة عبئه ، وثقل حمْله ، وجَسامة مسعاه ، وعظمة دوره ما منحنى اليقين المدّب بنبل خطاياه ، وجلال مراياه ، ويُمْن أيامه ، ومَجْد زمانه .

وأحسب أن هذا واجبنا جميعا نحو الإنسان ، أفراداً ، وجماعات ، وأمما ..

ينبغى أن نثق بالإنسان ، ونطمئن إلى مصيره ، وينبغى أن يكون جهادنا — دائماً — مرتبطاً بجهاده ومتمماً له . وأن نتحرّى مشيئته ونعمل وَفْقها .

لقد قرأنا كثيراً عن تاريخ الإنسان . ووقفنا عنده طويلا

أفينبغى لهذه الوقفة أن تدوم . ؟ ؟

كلا ، وإنما واجبنا أن نتقدم لِنُسْهم فى بناء هذا التاريخ بعزيمة أقوى ، وثقة أتم ، وولاء أكثر .

وذلك يقتضى أن يأخذ كلٌّ مكانه بين الصفوف الزاحفة ..

ويدفع كلٌّ ، كِيانه الصغير داخل الكيان الكبير ..

علينا أن ننقل الإنسان إلى حياتنا ، ونملأها برُؤاه وبإصراره ..

وعلينا أن نعمل من أجل مستقبله ومصيره ، وكأننا نبصر هذا المستقبل وذاك المصير .

وبقدر ما تحمل عزائمنا من تفاؤل ، سيكون جمال كفاحنا ، وستكون عظمته .

لنثق تماماً ، أن هذه الأرض لن تشهد يوماً مّا ، جنازة الإنسان ..

فالإنسان الذى قضى ملايين السنين فى أحضان التطور لكى يبلغ الرُّشْد الذى يبدأ منه رحلته الجادّة الصاعدة ، لن يقضى نحبه حين

تدق ساعة رُشده وتبـــدأ بشائر عصوره .. ولقد دقت الساعة ، وأهلّت البشائر ..

ولو لم يبق من البشر سوى ألف أو مائة ؛ فسيعمل الإنسان داخل هذا الألف .. ، أو هذه المائة ..

وإذا لم يبق من نوعه إلا عشرة ؛ فسيعمل مع هذه العشرة ..

وإذا لم يبق إلا واحد ؛ فسيبدأ بناء عالمه الجديد بهذا الواحد ..

وإذا فنى هذا الواحد أيضاً ؛ فسيكمنُ الإنسان داخل « أميبا » يهرب بهـا من الفناء ، ويبعث من داخلها نفسه مرة أخرى ، وينشر وجوده وحياته ورسالته من جديد .

لنؤمن بهذا جيدا ..

ولنثق بأن خليفة الله هذا .. ، سيبلغ من أمره ما يريد .

ينبغى

جهادنا —

ونعمل وَفْق

لقد فر

أفينبغ

كلا

أقوى ، و

وذلك

ويد

علينا

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

للمؤلف

١ ـ من هنا .. نبدأ

٢ ـ مواطنون .. لا رعايا

٣ ـ الديمقراطية .. أبدا

٤ ـ الدين فى خدمة الشعب

٥ ـ هذا .. أو الطوفان

٦ ـ لكى لاتحرثوا فى البحر

٧ ـ لله والحرية (جزء أول)

٨ ـ لله والحرية (جزء ثان)

٩ ـ معا على الطريق ـ محمد والمسيح

يطلب فى العراق من :

مكتبة المثنى ببغداد

الثمن { ١٢٠ قرشا مصريا
١٢٠ « سوريا
١٢٠ « لبنانية

مطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة